منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

شَهلا العُجيلي

سَجّاد عَجَميّ

مكتبة

رواية

سَجّاد
عَجَميّ

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0904-9

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 96650933772+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

سَجّاد عَجَمي

رواية

شَهلا العُجيلي

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

إهداء

إلى ماما في عليائها،

إلى مُصلِح، وزَين، وغِيْد.

شهلا

مكتبة
t.me/soramnqraa

-1-

اجتمع القائد سعدٌ بمعاونَيه في استراحة الوالي المقامة على مشارف المدينة، التي تَرْقُبُ قدَرَها الوشيك. بادَر سعدٌ:

يا صاحبيَّ، إذا ما أراد قائد دخول قرية، فعليه أن يستبطن ثلاثة: ماءَها، وهواءَها، ونساءَها.

ردّ حارثة: فأمّا الماء، فوفير قراح، وأمّا الهواء، فنمير، يطيب تحته اللّقاح، وأمّا النساء، فعربيّات قحاح، بدا لي منهنّ نظافةُ الحلّة، وحسن الخلّة، وفيهنّ عهر محبّب! فقاطعه وائل: هي الفتنةُ يا حارثة، فتنة... فالفتنة أصلٌ، والعهر مجلوب.

ابتسم سعد حتّى غار أسفل وجنتيه من الغبطة، وصاح: إذن، فلندخل الرَقَّةَ على بركة اللّه، ولتكن أبيات سهيل بن عديّ نقشاً في بابها الغربيّ، باب الجنان:

وصادمنا الفراتَ غداةَ سرنا
إلى أهل الجزيرة بالعوالي
أخذنا الرقّة البيضاء لمّا
رأينا الشهر لوّح بالهلالِ

حينما أقبل القادة الثلاثة من علٍ، وجدوا مدينة من الطين المخبوز، تظلّله خضرة وارفة من الزيتون، والحور، والصفصاف. البيوت الواطئة تتباعد، لتفسح مجالاً لجنائن صغيرة ترتاح بينها، والبيوت في

الأعلى تتلاصق، وكأنّ بعضها يمسك بعضاً خيفة السقوط، تتدلّى من الأسوار والشرفات أغصان منقوشة بالليلك الذي قيل إنّه لا يعيش إلاّ هنا، حيث تصل دروب المدينة كلّها إلى الفرات.

كان الناس مشغولين بما ستكون عليه قادمات أيّامهم، وبينما هم في هَرَجٍ ومَرَج، جلست (خَودٌ) إلى نافذة حجرتها المشرفة على غدوّ أهل الحيّ ورواحهم، من غير أن تبصر أحداً! كانت (ريّا) قد دخلت عليها مرّات، لتجدها على وجومها، تحدّق في المشهد أمامها، وعقلها في مكان آخر، فما كان منها إلاّ أن أيقظتها:

- هل ستبقين طويلاً على هذه الحال يا خود؟!

ردّت بتثاقل:

- وماذا عساي أفعل؟
- تثوبين إلى رشدك.
- وماذا أفعل برشدي إن لم يسعفني بحيلة أستعيد بها (عمر)!
- ولَمَ لا يسعفكِ رشدك لاقتلاعه من فؤادك! عمر لا يريدك، ولم يكن يوماً لكِ، لقد علق الرجل أمّ الصبيّ، وذهب في أثرها. انظري حولك، انظري إلى شباب الرقّة من أزكى بطون العرب، يرتجون ردّة طرفك، أو تلويحة ردنك!
- أوّاه يا ريّا! إنّه هوى أبناء العمومة، الحلال الحرام، باللّه عليك، هل هذا عدل؟ كيف يجري دمه في عروقي، ولا أجد إلى قلبه سبيلاً!
- وكلّ ما يفعله بكِ؟ هذا الصدّ وذاك الهجر، أليسا برادع؟
- ما تزالين غضّة يا ريّا، أما علمتِ أنْ ليس في الهوى رادعٌ، عمر نارٌ يا خلّتي، إن اقتربت منها أحترق، وإن ابتعدتُ عنها أموت من البرد!

-2-

لم يكن أهل المدينة يعلمون بالموعد المضروب لوصول الوالي الجديد، الذي سُبق بفرقة عسكريّة مشّطت المكان، وبكلٍّ من قائد الشرطة، وقائد الجند ومساعدَيه، وصاحب الحسبة، وقد بدؤوا جميعاً بتسلّم مهامّهم ممّن سبقهم.

لم تعتد الرقّة على تواتر تغيير الولاة، ذلك أنّ من يأتيها، يطيب له المقام فيها، فلا بلابل تنخر نهاراته، ولا قلاقل تؤرّق لياليه، فأهلها يميلون إلى دعة العيش، وحبّ السلم، إذ أدركوا منذ زمن أحوال مستقرّهم بين جمرتين، جمرة تحت رماد في الشام، وأخرى متّقدة في العراق، ثمّ إنّ الله أغدق عليهم من النعماء ما يكفيهم مشقّة سلوك دروب السياسة والعسكر، يمدّ الفرات لهم يديه بشراب هنيء، وطعام مريء، زراعتهم في نماء، وتجارتهم إلى رخاء، وبُيوعُهم تروج في أسواق نصّيبين وميّافارقين، ولا تعدم الوصول إلى قلب بغداد، جنباً إلى جنب نفائس ما يَقْدم من الهند والصين، وحولهم مراكز العلم في الرّها وديرزكّا، حيث يحصّل أبناؤهم أصول النسْخ والترجمة، وعلوم الطبّ واللّغة. لكنّ عزْلَ الخليفةِ واليَه الذي لم يمضِ على ولايته حجّة، وإبداله برجل يلهج بالسيف قبل اللّسان، أثار ريبة أهل الجزيرة والفرات، وقبلهم أهل الشام وبغداد، فذلك ما لا يستدعيه إلاّ خطبٌ جلل، مثل ذلك الذي شاع طلوعه مؤخّراً، وقد يوقد الفتنة بين المسلمين، وليس

ذلك عموم الفساد، الذي شاع في حواضر دار الإسلام كلّها، ولا هو بقلّة خراج قصّر عن أن يملأ أكياس أهل الحَلّ والعقد في بغداد، ولا بنقص حيلة الوالي في سياسة القبائل وناسها من مسلمين، وذمّيّين، ومجوس.

كان كلٌّ من سعد، وحارثة، ووائل، يحدّث نفسه بالأمر عينه: هل سيطيب هذا الشطر من الزمن في الرقّة، أم أنّ هذا التراب الأثير على قلب خليفة المسلمين، سيُحثى على جسده عمّا قريب!

أنجز القادة الثلاثة خلال أيّام مهامّ استطلاع مكانهم الجديد، وتفحّصوا السور والأبواب الأربعة، والمسجد الجامع، ودار الولاية، والقصر محلّ إقامة الوالي، وعبروا الفرات إلى الضفّة الأخرى حيث بساتين (الرقّة السوداء) تقابل عمران (الرقّة البيضاء)، وأقاموا ليلة في الرصافة جنوباً، وليلة في دير زكّا شمالاً، وطلعوا إلى البادية في ليال أخر قضوها في دير الزعفران، ودير العذارى، التقوا كبراء الناس، وجلسوا بين صُغارهم، يرمون إلى معرفة الطباع والجبلاّت. وحين دخل الوالي قصره ليل الخميس، كانت الأمور قد سوّيت ليصلّي الجمعة في الناس الذين ملؤوا صحن الجامع، وفاضوا إلى حدود السور، شاخصين بعيونهم، مصغين إلى كلمات الوالي الذي صلّى بهم صلاته الأولى، ثمّ وقف على المنبر خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلّى على نبيّه، ثمّ قال:

(أيّها الناس: ما نحن بأحسن منكم، لكنّا أصبحنا لكم قادة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيئه الذي خوّلنا، فلنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل والإنصاف، فلا نغلق بابنا دونكم، فيأكل قويُّكم ضعيفَكم، ولا نحمل على أهل جزيتكم ما نجليهم به عن بلادهم، ونقطع نسلهم، ولكم أن

يكون عندي أقصاكم كأدناكم، وأنا على ذلك، ما لم تَدَعوا الشيطان يستبطنكم، فيخالط منكم اللحم والدم، فيصل الشغاف، ليحشوكم نفاقاً وشقاقاً، فلا تصرّوا على الفتنة وأنتم لا تعرفون المخرج منها، وخاصموا الشيطان، واتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من يأتي بعدكم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.).

حينما نزل الوالي ليغادر، كانت غمامة الدهشة قد حطّت على ألباب الناس، فتلك شدّة في غير موضعها، ومقال ليس في مقامه، وراحت نفوسهم إلى نفور من الوالي الجديد، إذ وجدوا وراء كلامه تلويحاً بالتهديد، ووعيداً بما لم يعهدوه من قبل. لكنّ كلاًّ من مالك بن عليّ الأشجعيّ، وعاصم أخيه، وأحمد ابن عمّه، ورهطهم، كانوا قد عرفوا تماماً كنه المسألة، فَقفلوا واجمين إلى مجلسهم في الحيّ، وكلّ منهم يقلّب في عقله وجوه ما هم مقبلون عليه.

-3-

- ما بال عمر يا سهيل؟
- امرأة، حلّت، أخذت قلبه، ثمّ ارتحلت.
- لابدّ من أنّها قادرة، فلم أره في حبّ امرأة قبلاً، على هذه الحال!
- ليست المرأة وحدها، بل معها طفلها.
- إذن، ربّة بعل هي، ويحك يا عمر! أفيذوق من الهوى مرَّهُ رَجُلٌ أذاق نساءَ الرقّة حلاوتَهُ! بالله خبّرني من هي؟
- امرأة كانت على سفينة قادمة من بغداد، نزلت في المرفأ، وباتت ليلة في نُزِل (محبوبة)، ثمّ ظعنت فجراً مع أوّل قافلة إلى دير زكّا، ولا علم لنا غير ذلك بأمرها، حتّى عمر ذاته لا يعرف عنها سوى ما رآه منها في تلك اللحظات العابرة.
- لا بأس عليه يا سهيل، فلا يضير الرجل حبّ امرأة لا يعرفها!
- لكنّه عقد العزم على معرفتها، فمن يومها الذي مضى عليه أسبوع، صاحب عمر الملاّح، يبحث بين حكاياته عن خبر المرأة التي سلبت لبّه.

* * *

رسا المركب القادم من بغداد على شاطئ الفرات، وبدأ ركّابه ينحدرون إلى سبلهم، وبعد حين أطلّ أحد العاملين ليناول عمر الذي وقف على الرصيف، صندوقاً من تلك الصناديق التي تحمل فيها

الأمانات في البحر. وبينما كان عمر يحثّ مولاه على تناول الصندوق، برزت امرأة في يدها طفل، ربّما في السادسة من عمره، وقد أعياها إنزاله والمتاع معاً، فما كان من عمر إلاّ أن أسرع نحوها ليساعدها، فمدّت له يدها بالولد، فتلقّاه، وسايره، ريثما أمّنت على بقيّة حملها. وما أن وضعت قدميها على اليابسة، حتّى انتصبت أمام عمر كالسارية، أدارت حولها الطرف، وهي تملأ رئتيها من الهواء بنشوة من يعتلّ كأساً حُرِمه زمناً، وقالت غير محدّثةٍ أحداً:

- طوبى لمن عاش حتّى يلقاكِ!

ردّت امرأة وراءها، كانت قد عرفتها على ظهر السفينة:

- أيقول ذلك من خلّف بغداد وراءه؟!

قالت المرأة وهي تحتضن طفلها:

- والله لا يَعدل هذا المنزلَ سوى الجنّة!

بدت (لبانة) قد جاوزت العشرين بربيعين أو ثلاثة، عليها ثوب من الكتّان الأبيض، مطرّز عند الصدر بخيوط من القصب الأصفر، وقد لفّت شعرها بخمار فيروزيّ عقصته إلى الخلف، وثبتته بعصابة من نقش قصب الثوب ذاته، بحيث خفي على عمر لونه، فخمّن أن يكون أسود، مسايراً لوجهها الحنطيّ المشرّب بسمرة خفيفة من تلاويح الشمس، وقد تدلّى من أذنيها قرطُ ذهبٍ له شكل طارة كبيرة. وحينما كان عمر منهمكاً يجمع تلك التفاصيل، بادرته لبانة:

- شكراً لك أيها السيّد، هلاّ أكملت جميلك، فأرسلت إلينا من يحملنا إلى نزل نرتاح فيه، أخشى أنّ حال الأماكن قد تحوّلت، وقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

- أمهليني، وأراد أن يقول لها يا أختاه، لكنّ الكلمة وقفت في حلقه، فواصل: يا سيّدة، ريثما أحضر مركبتي...

- لا، لا أرجوك، يكفي أن تدلّنا على الطريق والوسيلة.
- الوسيلة معي، وتعرف طريقها.
- لكنّ لبانة أصرّت على أن تترك عمر لشغله، وقبل أن يأخذ ومولاه فرصة للقيام بأيّ شيء، كانت دابّتا الكرّاء قد حملتا المتاع، والطفل، والمرأة التي شكرته بابتسامة، وسارت في طريقها إلى النزل.

-4-

(محبوبة) امرأة حسناء، ذات غنى، تملك نُزُلاً بمغنى، ومطعم في (حيّ الرياحين)، يختلف إليه الأشراف وغيرهم من أهل المروءات في الرقّة. وهي ظريفة وعالمة بأمور النساء، وقد كانت قبل ذلك جارية لمالك الأشجعيّ، والد عمر وريّا، تجيد الغناء، والضرب على العود، فلمّا أعتقها، فتحت هذا النزل، تستقبل فيه المسافرين، وطالبي السهر والطرب، وتقوم وفتياتها وغلمانها على خدمتهم، فأثمر دأبها، وازدهر عملها، وصارت من ربّات المال في الرقّة، وهي صاحبة نخوة، تفكّ المدين، وتعطي المحتاج، وتصون السرّ.

حينما دخلت لبانة بهو النزل كانت قد لفتت انتباه الجالسين بخطواتها الوئيدة، وهيئتها البهيّة التي أثارت فضول محبوبة، فهي لم تَعْتَدْ حضورَ نساء شابّات لهنّ هذا الحسن، وذلك الهندام، وليس برفقتهنّ أحد، لكنّها لم تأخذ وقتاً طويلاً لتتذكّر لبانة:

- أنت لبانة بنت إياد السلميّ!
- نعم
- كم أنضجتك الغربة!

لم تستغرب لبانة من أن يعرفها الناس في الرقّة، فسبع سنوات ليست بالغياب الطويل، لتحول حال الوجوه فيه، وها هي تعود لتجد نزلاً جميلاً تديره امرأة، لتعرف منها أحوال البلاد، وأخبار العباد، مذ غادرتهم.

لم تَنَمْ لبانة تلك الليلة، وبقي قيس الصغير في حجرها يتململ من حديث أمّه مع محبوبة إلى الفجر. كانت لبانة في شوق لتلقى أباها وإخوتها الذين لم تسمع عنهم خبراً كلَّ ذلك الوقت. محبوبة طمأنتها أنّهم بخير، فأبوها يتردّد على النزل كلّما نزل من دير زكّا، حيث زراعته، إلى الرقّة، وإخوتها امتلكوا زراعةً في الرقّة السوداء، جنوبيّ الجسر، وأكثرهم يقيم فيها.

- مالَكِ سكنْتِ يا لبانة؟ ها قد حكيت لك الحكاية من أوّلها إلى آخرها!

حوّلت لبانة نظرها نحو الشرفة، فأضاءت عينيها المشاعلُ المزروعة على جانبي الجسر في الطريق الممتدّة أمام النزل، وبدت تجاهد دموعها:

- هذه أوّل مرّة أرى الرقّة، وأمّي ليست في الدنيا، غادرتُ دير زكّا بعد وفاتها بقليل.
- رحمها الله، كلّنا ميّتون! هيّا خبّريني أنت عن أحوالك، وإن بدوتِ على خير ما يرام!
- حمداً لله! لاشكّ في أنّ خبر زواجي لم يخْفَ على أحد في الرقّة، فحينما كنت أدرس النسْخ والترجمة في دير زكّا، أحببتُ العالم الذي وفد إلينا من بغداد، وتزوّجته، ورحلت معه، وهناك أنجبتُ قيساً. كنتُ سعيدة جدّاً، وكان رجلاً من درر الرجال، علماً، وديناً، وخُلقاً، وقد ذاع صيته في بغداد، فأوفده الخليفة إلى خراسان، ليقيم مكتبة هناك على شاكلة مكتبة بغداد، فسافر، وانقطعت عنّا أخباره، مرّ على غيابه سنوات أربع، وبقيت على أمل عودته، لكنّ أخباراً وصلت بأنّ المقام طاب له هناك، فبنى بامرأة خراسانيّة، بل يقول بعضهم هي ابنة الوالي، والله أعلم!

بقيت أعمل هناك في النسخ، سوق الوراقة عـــامرة في بغـــداد، وجمعت مالاً كثيراً، لكنّ الغربة قتلتني، فقد تركت وطني مـــن أجـــل الرجل، والرجل غاب، و لم يعد لي سبب للبقاء، ومتاعي ليس بالثقيل: قيس، وبعض الكتب، حملتهم معي، وركبت إلى هنا.

غداً، إن شاء الله، أذهب إلى دير زكّا، فأقيم مع أبـــي أيّاماً، لقد أوحشني كثيراً، ثمّ سأعود إلى هنا، لأبدأ العمل، وأنظر فيما سيقدّر الله لي أن أفعل.

مع نهاية الحديث، كان جسر من الألفة قد مُدَّ بين المرأتين، محبوبة التي اعتادت سماع حكايات الناس، ولبانة التي بدأت الســـطر الأوّل في حكايتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-5-

ليلة غادرت لبانة، اجتمع عمر وسهيل في نـــزل محبوبة، فقد أرادَ عمر لملمة عبق المرأة من كلّ مكان وطئته قدماها في الرقّة. قرن كـــلام ملاّح السفينة بكلام محبوبة، فارتسمت في مخيّلته صورة جليّة لطيـــف أجهز على جوارحه جميعاً.

قال سهيل:

- عجيب أمرك يا عمر! لم لا نخرج إلى الكرخ، أو إلى دير العذارى، مادمنا قد عزمنا على السهر، الجوّ حارّ هنا، وقد يأتي الآن أبـــــي وأبوك والآخرون، فتفوتنا الخلوة.
- لا جَلَد لي على السهر الليلة، أريد أن أبقـــى إلى جـــوار محبوبـــة فحسب، فهي الوحيدة التي شاركتني لقياها، أريد أن نعيد كلامنا عليها ونـــزيد، ليتك يا سهيل رأيتها، فتؤنسَني، أو تـــذكّرني بمـــا نسيتُ!
- أراك تمعن في الغيّ يا عمر، تقول: هي لحظات، ولحظات لا تكفي لتكنّ هذا الحبّ كلّه لامرأة.
- والله تكفي. ثمّة نساء أشبه بالصاعقة، تلمع أمامك على حين غرّة، وقبل أن تدرك نفسك، تحطّ عليك، فلا تستطيع منـــها فكاكـــاً، وحين تتلاشى، تكون الأرض حولك قد تغيّرت، وصارت أوســـع وأصفى...

- و(خود) يا صاحبـــي، كيف ستفعل معها؟ والله لو علمتْ بأمرك، لذهبتْ نفسُها حسرة وكمَداً!
- يا سهيل، يا سهيل، أنت أعلم بحالي، خود صادفت منّي قلباً خالياً فحلّت فيه، لكنّ الأصل في الهوى أن تحلّ المرأة في قلـــب آهـــل، فتذهلك عن أهله!

كان بهو النـــزل يعجّ بروّاده، فاقترحت محبوبة على عمر وسهيل أن يردا إلى الداخل، حيث الممرّ معقود السقف، مزيّنة جدرانه بـــورود من الخزف الأزرق، تبدأ عروقها الخضراء من الأرض، وينفـــتح الممـــرّ على فناء مرصوف بالحجر، تتوسّطه بركة، أُلبس أصلها مربّعات صغيرة من الخزف الأبيض والأزرق والأخضر، وحولها أذرع الليلك تتشـــابك مع أغصان الرمّان.

انتأت محبوبة إلى مجلس متطرّف قليلاً، ضمّها والشابين، وأمـــرت غلامها بالشراب، فقاطعها عمر:

- لا يا محبوبة، قد يدخل والدي في أيّة لحظة.
- اطمئن، أبوك لن يغادر المجلس هذه الأيّام، لقد طرأ ما يشغله عنّا!

كان عمر على علم بما استجدّ من أمر الوالي الجديد، لكنّه لم يكن في مزاج يؤهّله ليفكّر في أيّ شيء، خلا لبانة.

- محبوبة، أعيدي على مسامعي حديثكما. متى قالت إنّها ســـتعود؟ وأين سيكون مقامها؟ وماذا حلّ بزوجها؟...
- على رسلكَ، على رسلك! أنت تجهل المرأة، وأنا أيضـــاً عرفتـــها طفلة، ولا أعلم من أمرها سوى ما روت. ربّما حال خيرٌ بينكما! لكنّ الولد بين يديها... ما أحسنه يا عمر! والله إنّ النظر إليه يبهج النفس، رغم ذلك الشيء الغريب الذي يلفّهما معـــاً، حـــزن، أو انكسار...!

وضع عمر رأسه بين كفّيه، وأسندهما على الخوان أمامه، وقال:

- أنا أجهلها، ولكن يكفي ما عرفته عنها حتّى الآن، لقد أخذتني كلّي، ولا أريد من أحد عذلاً، إنّها امرأة ليست كغيرها، لقد شعرت بها قويّة وراسخة مثل نخلة، وطالما تاقت نفسي إلى هذا الصنف من النساء، الذي حدّثتنا الحكايات بحديثه، و لم أقابله إلى يوم قابلتها.

- حسناً يا عمر، لا أعذلك، ولا أريد منك تفسيراً، فحبُّكَ الشيء يُعمي ويصمّ، وأيّ تفسير سيقتل وقت هناءتك، كما يقتل سهيل هذا الشراب بالماء!

- كفّ يا سهيل، وهاتها صُراحاً. وأنت يا محبوبة أسعفينا بصوت.

أقبلت (بهجة) المغنية حاملةً عودَها، وغنّت الجلوس لحناً بديعاً من شعر بشر بن أبي خازم، أخنى له كلّ من عمر وسهيل:

وغيّرَها، ما غيّرَ الناسَ قَبْلَها
فبانتْ، وحاجاتُ الفؤادِ تصيبُها
ألم يأتها أنّ الدموع نِطافةٌ
لِعَينٍ، يوافي في المنام حبيبُها؟

رقّت محبوبة للعاشق الغرّ، إذ حدست بخبرتها وبأمومتها، وهي التي ربّته حينما كانت في بيتهم، أنّ كأسه هذه ستمزج عمّا قريب بدمعه، فقالت وهي تحتضنه:

- اشرب يا عمر، اشرب، واطرب، فأحلى الهوى طلائعه، حيث لا وصلَ، ولا هجر!

-6-

بكّرت (ريّا) إلى السوق كعادتها، كانت الدكاكين ما تزال مغلقة، وهذا ما تحبّه، أن تصابح عملها قبل أن يسعى الناس في مناكب المدينة، وقبل أن يلتئم شمل عاملاتها، وصويحباتها اللّواتي يحلو لهنّ أثناء المرور بالسوق، أن يتقيّلن، ويعقدن جلساتهنّ في حانوتها.

اعتادت أن تعدّ شراب البابونج الساخن، منذ أن تدلف إلى ركنها الركين، ثمّ تمدّ عجينتها على القالب، وتدير برجلها دولابها، وتبدأ بتشكيل الخزف. ريّا أشهر خزّافة في الرقّة، تصنع الجِرار والدِّنان، والكؤوس وغيرها من أدوات الطعام، كما تصنع المحابر والأختام والمقالم، وكذلك القلائد. تعدّ التراب بنفسها، ولا تُطلع على سرّ خلطتها أحداً، وهي تقوم بتزجيجه بالغضار كي تمنع أيّ نفاذ أو رشح قد يحدث، لذا فإنّ خزفها ينماز بلونه، وبرقّة بنيته، فضلاً عن النقش المحبّب الذي تبتكره ريّا بنفسها، وتسعى إلى تجديده باستمرار. وهي حينما تعكف على آلتها، تكون قد أَخْلَت نفسها من الدنيا وناسها، وفتحت روحها للطين، مثل راهبة متبتّلة أمام الهيكل، لا تسمع ولا ترى، ولا تطيق أن تكلّم أحداً. تروح كفّاها، وتغدوان، وكأنّهما تداعبان جسد حبيب، وتغوصان في ثنايا الصلصال، بحيث يصعب على الناظر تبيّن سُلاميّاتها[1]، لتخلق من الطين هيئات فريدة، يحار الناظر بين حسنها، وحسن صاحبتها التي تحبّ حينما تنفرد بطينها أن

---

1 أصابعها.

تجمع ثوبها بين فخذيها، كاشفة عن ساقين صفراوين، بضّتين، متحـــرّرتين من كلّ غطاء، لتستقبلا رذاذ الطين المنبعث من الدوران في أثناء التشكيل، ذلك الذي يبعث في جسدها نشوة، تعقبها نشوة أخرى حينما تقتلع قطع الطين الجافّ الصغيرة من على جلدها.

عاجلتها خود هذا الصباح، ومعها صرّة فطور من جبن وزيتون، وعصير نخل جُمع للتوّ عن سوق شجر دارهم، وبعد قليل، أقبلت بعض بنات الأعمام، فجلسن يتبادلن الأخبار، ويلقين الخزعبيلات[1]، ويقضين بعض ساعات النهار الطويلة.

دلف كلّ من سعد، ووائل، وحارثة حانوتَ ريّا، يتأمّلون الخزف الرقّيّ الشهير، بعد أن أخذهم بهاء البضاعة المصفوفة أمامـــه، بألوانهـــا الرزينة، ونقوشها البديعة، واستقرّوا في المساحة التي تتركها ريّا لعرض نتاجها، والتي تقيس أربعة أذرع في أربعة، في حين تعمل في الداخل، في مكان أقرب إلى الفناء الذي يقع في الخلف.

أوقفت ريّا عجلتها، وكفّت الفتيات عـــن الحـــديث هنيهـــة، يستطلعن الداخلين الثلاثة، الذين بدوا غرباء عن البلد. وفي حين كـــان وائل وحارثة يتأمّلان الخزفيّات، كان سعد يتأمّل جسد الخزّافة الـــذي يتلوّى أمام الجرّة مثل أفعوان، في ثوب من الكتّان الأصفر، يزينه زنّـــار نيليّ بلون خمارها الملفوف على الرأس مثل عمامة، بحيث لا ينسدل منه ما يمكن أن يعيق حركتها في العمل، ويحوط عنقها سير من جلد بـــنيّ، يحمل معاذة[2] من غضار[3] أخضر، نقش عليها بماء الذهب (فاللّه خـــيرٌ حافظاً).

---

1 الحديث المستظرف الذي يُضحك منه، ومفردها: خزعبيلة، أي النكتة.

2 تميمة، ما يُعلّق في العنق لدفع العين.

3 خزف أخضر، أو طين حرّ.

واصلت الفتيات ما انقطع من حديثهنّ، كانت خود تخبرهنّ بخبر الوالي الذي مضى، وكان آخر ما تزوّد به من زاد الرقّة عروسٌ، هي ابنة صيلم الدارميّ المضريّ، فبادرت إحداهنّ:

- لقد فاز فوزاً عظيماً! أيّهنّ من بنات صيلم: المنخنقة، أم الموقوذة، أم المتردية، أم النطيحة[1]؟!

ردّت أخرى:

- بل ما أكل السبع!

وتعالت الضحكات...

- لؤم بنات صيلم يُذهب حسنهنّ، كما تذهب الحسنات السيّئات.

علّقتْ خود:

- بل هي سلمى، سلمى جميلة، وطيّبة، ثمّ هي بنت خير بيوت الجزيرة والفرات، وهي إن لم تأخذه بخدَّيْها، أخذته بجَدَّيها!

- بل أخذته بالخرزة التي أتت بها قافلة أبيها من اليمن، ألم تسمعي باليَنْجَلَب، ذلك الذي تقول فيه الراقية: أخذتُكَ باليَنْجِلب، فلا تَرِمْ، ولا تغِبْ[2]...

- لا ضير، لقد شارك أباها تجارته، وما تزال به بقيّة من شباب، وله جاه، ومال، وضياع... لقد كان رحله يميل ذات اليمين وذات الشمال لثقل ما حَمَلتِ الخروجُ، إنّ عِمَاده قائم وشديد!

---

1 إشارة إلى قوله تعالى في سورة المائدة: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ..."(3) والموقوذة: التي تُضرب حتّى تموت، والمتردية: التي تسقط من علٍ، والنطيحة: التي تُنطح.

2 الراقية: التي تقرأ الرقى أو التعاويذ. ترم: تغادر.

قالت خود:

- عماد! عمادٌ من ملح، لا يكون عماداً إذا لم تُرس أوتادُ، ولا يكون الوتد إلاّ على تقوى من الله، ورضوان، وما خلا ذلك فهو باطل الأباطيل.
- ولِمَ هذه الغضبة يا خود؟! أكانت لك فيه غاية؟
- لا يا بنيّة! باعد الله بيني وبين دوائر السلطان، لكنّني آسى على هذا الماء، كلّ من ورده يغرف منه ويحمل، ثمّ يرميه بقذى، فيترك أهله عطاشاً!

* * *

بعد أن تفقّد الرجال الثلاثة موجودات الحانوت، وسمعوا الحديث جلّه، رسم كلّ منهم الهيبة على محيّاه، وغادر من غير أن تحاول الفتيات تبيّن شخصه. تابعوا جولتهم في السوق، مأخوذين بما شهدوا من حسن، ومرح، وطلاقة، حتّى إنّ سعداً صرّح لصاحبيه قائلاً:

- عرفتُ نساء الحجاز والعراق والشام، فلم أشهد سماحة تعمّ الوجوه، مثلما هي عليه وجوه النساء هنا، فيهنّ شيء يَهدي الخلائق نحوهنّ، ربّما هو لون البشرة الملوّح، مع ذلك التورّد الظاهر، أو هي لمعة العينين!

ردّ وائل:

- هو فعل الفرات يا سعد.
- لاشكّ فيما تقول. أرأيتما حسن الخزّافة ورزانتها! والله إنّها لأرقّ من الآنية بين يديها.

قال حارثة مغالباً صمته، وكأنّ سهماً أصابه:

- بل الأخرى أحسن!
- أيّهنّ؟ قال وائل

- ربّة الحديث.
- خود، اسمها خود، وفي وجهها خير كثير!

قال سعد:

- لكنّها دون الخزّافة جمالاً.

حارثة:

- نعم، هي أقلّ جمالاً، لكنّها أكثر ملاحة، طلقة، وجريئة، وحين تتكلّم تنضح الحياة من محيّاها!

سعد:

- وجَدْتُها ربعة، ونحيلة، ولها رعونة الأطفال، أمّا الخزّافة، فأشبه ما تكون بدمى الأديرة، مرسومة رسماً، وليس على الناظر إلاّ أن يقدّم بين يديها القربان!

حارثة:

- أَصَبْتَ أيّها القائد، لكنّ النساء عندي أحاديث، وخود أحسنهنّ حديثاً!

-7-

ولجت ريّا وخود السوق، تريدان الحرير الذي سمعتا أنّه وصل للتوّ من الموصل، وفيما هما ممعنتان في المضيّ، أمسكت خود يد رفيقتها، وشدّت عليها بقوّة، فاستوقفتها:

- مالك يا بنة عمّي؟!

ردّت خود وهي تشهق:

- إنّي أجد ريح عمر!

حوقلت[1] ريّا:

- يا خود، عمر سرى في شغل له خارج السور، ولن يعود قبل اللّيل، وإنّما نحن بجوار دكّان ميسرة العطّار، ولا بدّ من أنّ عمر يداوم على واحدة من خلطاته.

- إذن، قفي. قفي، ودعيني أتزوّد من عطره...

وراحت خود تعبّ الهواء عبّاً، حتّى كاد يطفر ماء عينيها. جرّتها ريّا من ذراعها بغضب:

- إمّا أن نجلس أمام العطّار، فنصير حديث السوق، وإمّا أن نبتاع حنجورة من عطر عمر، تحملينها معك أنّى اتجهتِ، إلى أن تذهب بعقلك جميعاً.

---

1 قالت: لاحول ولا قوّة إلاّ باللّه.

نظرت خود إليها بعتب، مجاهدة دموعاً كثيرة احتشدت في مآقيها، فأشفقت ريّا على حال صاحبتها وابنة عمّها، وقد تفتّق ذهنها عن فكرة، فسحبتها بحنوّ نحو دكّان العطار، قائلة:

- دواؤك عندي، ولن يمرّ وقت طويل لتصير نارك الموقدة هذه رماداً.

بينما كانت ريّا تكلّم العطّار، كانت خود تحاول التقاط الرائحة التي تهفّ، فيخفق لها قلبها، ثمّ تغيب، فيعتريها اليأس، وكم كانت ترجو لو أنّها لا تريم ذلك المكان!

ابتاعت ريّا شيئاً، وُضع لها في صرّة صغيرة، ومضت الفتاتان لشأنهما، وقد بدت خود خائرة القوى، وكأنّ روحها قد جَفَتْ جسدَها.

ألقت ريّا ما في الصرّة على فراش خود، كانت خرزة بيضاء، تشفّ عن ماء كأنّه الزلال.

قالت خود بتهكّم:

- تريدين منّي أن أُعلّق هذه الخرزة في عنقي، فآخذ بها عمر؟
- بل تشربين ماءها، فتنسين عمر. لقد دفعت فيها مالاً كثيراً، لذا ستفعلين ما أقوله لك: سندفن هذه الخرزة في الرمل، وبعد قليل تصير سوداء، ننقعها، وتشربين نقيعها.
- ومن أين لك هذه الوصفة؟
- سمعتها من واحدة من زبوناتي، هذا ماء السلوان يا خود، يُسقى به العاشق فيسلو، أو الحزين فيغتبط.
- لكنّي لا أريد أن أسلو عمر، مرادي الوحيد هو أن نعود كما كنّا!

تنهّدت ريّا، وكأنّ عبارة خود الأخيرة أصابتها في مقتل:

- كلّنا نريد أن نعود كما كنّا، ليتنا يا خود نعود كما كنّا! لكنّ الهوى في الرقّة يمرّ مرور الفرات، لاينبع منها، ولا يصبّ فيها.

-8-

ما لا ترجوه في اللّيل، يدقّ بابك في الصباح!

هذا ما كانت خود تحدّث به نفسها، حينما ولجت وريّا دار سُعدى الواشمة، فوجدت في وجهها المرأة التي قلبت حياتها رأساً على عقب.

كانت لبانة قد استراحت على فراش وثير، أكرمتها به سعدى، وعليها طيلسان بحريّ واسع وهفهاف، مشقوق من أعلاه إلى أسفله، بسجفين مفضّضين تجمعهما أزرار يصعب عدّها، وقد أسفرت فتحتاه على الجانبين عن ساقين بديعتي التكوين، لا دقّة فيهما ولا غلظة، ومع كلّ حركة، كان الثوب يتحرّر أكثر، من غير أن تبالي صاحبته بانكشاف فخذين لهما من البياض، ما لا يوحي به وجهها المشوب بسمرة. كانت لبانة عاطلة من أيّة زينة، خلا ما حباها اللّه به من ألق، وقد بدت خود أمامها بعباءتها السوداء التي لم تشأ أن تخلعها، لتستر ما لبسته على عجل، ناسكة أمام امرأة نذرت نفسها للمتعة، فأقعت مكانها، وقد ركبها الكمد، وقرّرت أن تتربّص بكلّ شيء في المرأة التي سلبتها رجلها، أمّا ريّا، فلم يكن لها فيما يدور ناقة ولا جمل، هو فضول فحسب، اعتراها لتعرف بعضاً من مزايا من زرعت الشوك في فراش أخيها عمر، وعن طريقها تعرف بعضاً ممّا وصلت إليه أفانين نساء بغداد في الزينة والترف.

حين أسقطت لبانةُ الخِمار عن شعرها، فاجأت من في مجلس الواشمة بلون مثل لون دم الغزال، أخّاذ وغريب، لم تعرفه نساء الرقّة من قبل، فقالت سُعدى:

- أهي حنّة غير حنّتنا؟
- هو خليط أحضّره بنفسي.
- بالله كيف؟!
- الحنّة ذاتها، أعجنها بمسحوق القرمز، وأتخضّب بها.
- لابدّ من أنّه لون شعور نساء بغداد اليوم؟
- لا يا سعدى، حتّى في بغداد لا تجدين هذا اللّون، لقد قرأت الوصفة في سِفر كنت أعمل على نسخه، يحكي عن خضاب تخضّبت به ملكات بابل! هل نبدأ عملنا؟ أرجوكِ يا سعدى رفقاً بي!

حلّت لبانة ثوبها من الأعلى، حتّى بدا ما عَمُر من نهدها الأبيض، وفي حين بدأت سعدى تحدّد بإصبع فحم الشكل الذي طلبته لبانة، جلست خود تحت يد مزيّنة أخرى، تخضّب شعرها الأسود بـ (الكتم)، فيزيد سواداً، ويضرب إلى الزرقة، فيشرق به لونها الأبيض.

بعد أن أنجزت سعدى مخطّط العقرب الصغير أعلى نهد لبانة الأيسر، التقطت إبرتها، وبدأت الوخز، ولبانة تعافر بين يديها مثل فرس استسلمت لقدرها، تكتم صرخاتها التي تتحوّل بين وخزة وأخرى إلى آهات نزقة.

نسيت خود زينتها، وانشغلت بالمشهد أمامها، الذي حوّلته بخيالها إلى آخر مختلف: كانت ترى لبانة بين يدي ابن عمّها عمر، يهصرها، ثمّ يعلوها، فتتأوّه تحته وتذوب، أمّا هي، خود، فتتميّز غيرة، ويتلوّن

وجهها بألوان الغيظ، وكأنّ الأمر حقيقة واقعة أمام عينيها، يـــذكيها سؤال تعرف إجابته مسبقاً: لماذا تَشِمُ امرأةٌ بلا زوج صدرها؟!

هدأت لبانة بعد أن خدّرها الألم، وراحت سعدى تمـــلأ مكـــان الوخز بـــ (النيلج) بعد أن أكّدت لبانة على أنّها تبغي الوشـــم أزرق نيليّاً لا أخضر.

سألتها ريّا:

- ولم العقرب، لا أجده شائعاً؟!
- بالعقرب، يغدو البعيد أقرب!
- هذه زينة لا أقدر عليها، كيف تحتملن ألماً لستنّ مضطرّات له!
- حياة المرأة جمّاع آلام: ألم الحيض، وألم العُـــذْرَة[1]، وألم الوضـــع، وكلّها تأتي رغماً عنها، أمّا ألم الوشم فهو ما نختاره بإرادتنا.
- وكلّها من أجل الرجال الذين هم من الألم براء!
- بل كلّها من أجل الحبّ، وللرجال آلامهم أيضاً.
- لكنّ أشطان بئر الرجل طويلة!

لم تشأ خود لهذا الحديث أن ينتهي، فقد كانت تتلمّس من ورائه أحوال عمر مع هذه المرأة التي لا تستطيع بأيّة حال أن تنكـــر فتنتـــها، فتدخّلت وهي تغمز قناتَها:

- الحبّ هو آسي الجراح، وهو أصلها أيضاً!

لبانة:

- الحبّ يملكه السعداء، ويشتهيه الأشقياء.
- حنانيك! هما فيه واحد، السعيد يصير شقيّاً بالهجر، والشقيّ يغدو سعيداً بالوصل.

---

1 البكارة.

تمعّنت لبانة في وجه خود، وقد أعجبها كلامها، وقالت:

- وأنت، لماذا تزيدين سواداً على سواد، ألست صغيرة على الشيب؟!
- لأزيد على سخامي سخاماً، قالت في نفسها، ثمّ أردفت: لا شيب في رأسي، لكنّ اللّون الناتج لونٌ لا كالألوان.
- لو مسحت حاجبيك باللّون ذاته، لزاد بيـــاض وجهـــك وبريـــق عينيك.

قالت خود في نفسها:

يا للمرأة! تقتلني، ثمّ تنقش في كفني!

-9-

أوى قيس إلى فراشه باكراً هذا المساء، لقد هدّه التعب، إذ قضى نهاره يتقافز بين الكروم، ويغتسل في الساقية مرّات، ويشاكس الفلاّحات في حقول جدّه، أمّا لبانة فقد انفردت بأبيها منذ الصباح، ولم تتركه إلاّ وقد أخلت وفاضها من كلّ ما جمعته من أحزان وأفراح طوال سنواتها السبع. وحينما نأى النجم، فرشت بساطها، كما كانت تفعل سالفاً، أمام باب البيت الذي ينفرج على الحقول، وجلست تستجدي عودة ما فاتها من ليالٍ في دير زكّا.

لقد حالفها الوقت، فهو الأحسن من أيّام السنة في بطاح الرقّة وبواديها، إنّه أوّل نوبة الزيتون، وآخر دمع العنب، تستقبل الرقّة فيه النوء القادم من الشمال، من بلاد الروم، تحمله ريح عذبة رطبة، فيحلو به الزيتون، ويكون أوّل جَنْيِهِ، مصاحباً القطاف الأخير للعنب، فيقيم الناس في الدير أماسي بهيجة، ينصبون خلالها في الكروم بيوت زلٍّ أو قصب، يطبخون فيها العنب، وينتبذون النبيذ، وهذا يكون على أشدّه في دار إياد السلميّ، لأنّها جارةُ الدير بيتَ بيت. بل إنّ حقول إياد ما زالت تشترك في بعض نواحيها مع أوقاف الدير من الحقول، ولا أحد من الطرفين يريد لهذه الشركة فكاكاً، إذ يشدّ كلّ منهما أزر الآخر، إياد بملكه وجاهه ومكانته بين مسلمي الجزيرة والفرات، ونصارى الدير بما يملكون من حبال تنعقد نهاياتها عند أرباب الدين والسلطان، وبين

هذا وذاك، أواصر الودّ الذي أذكاه طيب العيش بين الطرفين، فالبطرك صديق حميم للسلميّ، ولبانة رتعت أيّام طفولتها في مرابع الدير وساحاته، وتعلّمت في حماه القراءة والكتابة، إلى أن حصّلت معارفها في الخطّ والنسخ، والترجمة عن السريانيّة على يد علمائه المقيمين والزائرين، وكذلك فعل إخوتها.

أدركت لبانة، تلك اللّيلة، معنى العودة، فالعودة بيت، والبيت سكن، لأنّه يعقب قلقاً، فيُسكن إليه، العودة بيت، حينما تخرج منه، تجد من يلقي عليك السلام، وحينما تدخل إليه، تجد من تلقي عليه السلام، وإن لم تجد، فستبقى مصحوباً بالألفة التي تصنعها الذكرى في كلّ ركن من أركانه.

- لن يعرف حلاوة الأوطان إلاّ من عاد إليها بعد غياب. هذا ما قالته لبانة في سرّها، حينما بدأت السماء ترسل ودقها، فلمّت بساطها، ودخلت الدار.

كان مجلس أبيها ما يزال منعقداً، وروّاده يسمرون ويتنادمون على النبيذ الذي أعدّه إلياس الديرانيّ وبناته. فمرّت من وراء ظهور الجالسين، من غير أن تُشعر بمرورها أحداً. لكنّ سليمان الذي كان يرفع جاماً[1] من الفضّة، رأى ظلّها في المعدن بين يديه، فتأمّل صورة العابرة، ثمّ أغمض، وقد أصابت عينيه لمعة قرطها، وبعد أن استراح في صفنته، قال للديرانيّ:

- بصليبك يا إلياس! ما تقول في رجل أفنى شبابَه ركوبُ الفيافي، فلم يصبه نيزكٌ[2] أو سيف، وأصابه في بيته قرط؟!

ردّ إلياس، وكان ظريفاً دمثاً، وبه لحن محبّب:

---

1 كأس.

2 رمح قصير.

- له يا سليمان سبل ثلاث: إمّا أن يهدّ البيت، وإمّا أن يُقبّل مهوى القرط، وإمّا أن يشرب على اسم صاحبته قراطيلَ مقرطلة...

أردف سليمان:

- وإن لم يعرف اسمها؟

ردّ الديرانيّ، وقد كست وجهه ابتسامة حائرة:

- يشرب على رسمها.

- هات إذن لنشرب من قراطيلك، إلى أن نبلغ يوم المهوى الموعود!

-10-

لم يقع لُباب مالك الأشجعيّ في شرك الحيرة مثلما وقع فيها اليوم، حيرة يكتنفها غيظ وقلق على ما تحمله قادمات الأيّام إلى الرقّة وأهلها، وما يزيد بلباله إلحاح ربعه في السؤال والاستفسار حول ما كان من أمر الوالي وخطبته المتعالية، يريدون استدراك ما فاتهم من أمر كامن بين الكلمات، ولا شكّ في أنّ مالكاً به أعلم، فينتظرون منه ما يمكن أن تقرّ به بلابلهم، لاسيّما أنّ همم الشباب منهم فارت لمثل هذه الإهانة التي لم يعرفوها من قبل، وقد أرادوا غسلها، غسل الثياب من الدرن.

كان مالك الأشجعيّ من أولئك الرجال الذين يحار الناس في شأنهم! فهو لا يقرّب قريباً، ولا يبعد بعيداً، ورغم أنّ محبّيه قلّة، فلا يمكن للقاصي ولا للداني من أهالي المكان إلاّ أن يجلّه، فيحسب ألف حساب قبل أن يأتي بنأمة[1] بين يديه. فهو قويّ، ونزيه، وأمين، ومتلاف، أحاط حياته بسور من الكتمان، يشرف في النهارات على أملاكه، ويجلس بعد صلاة المغرب في مجلس عشيرته، يسمع من الناس، ، ولا يقول إلاّ في الأمر الفصل.

إنّ هالة الجبروت التي أحاطت بـ (مالك الأشجعيّ) لم تمنع عن بعض الناس الحظوة بالاقتراب منه، وإنّ من يقترب منه لابدّ من أن يحبّه، لكنّ صداقاته تقتصر على اثنين أو ربّما ثلاثة من أولاد أعمامه،

---

1 الصوت الخفيّ الضعيف.

يتداول معهم همومه التي تتعلّق بالعشيرة، والمال، والسياسة، أمّا في غير ذلك، فسرّه يقتصر، كما يبدو، على صدره، إلاّ أنّ الربع ممن أدركوه منذ صباه، يعرفون أنّ مفتاح باب صاحبهم هو النساء! فقلبه الذي يُضرب المثل في صلابته وثباته في سياسة شؤون العشيرة، وأكثر منها القبيلة الضالعة في بسط سيطرتها على بطاح الرقّة وبواديها، قد يتهاوى مثل عصفور بين يدي امرأة. لكنّها بالطبع ليست أيّة امرأة، فهو يتخيّر منهنّ المليحات الفطنات، أمّا ذوات الحسن الباهر، اللّواتي اكتفين به عمّا عداه، فليس له فيهنّ مأرب، ذاك أنّ زوجاته جميعاً كنّ من ذلك الصنف.

ومن هذا الجانب علق مالك (محبوبة) الجارية التي كانت في داره، وعلقته هي أيضاً. لقد حوّل ذلك الحبّ أيّامه إلى سرور دائم، رغم قسوة ما حُمِّل به من هموم ومسؤوليّات، لكنّ سرور النفس النبيلة لا يدوم طويلاً، فهي إن لم يكدّرها همّها، كدّرها همّ من حولها! فلم يمرّ وقت طويل حتّى علم مالك أنّ شقيقه عاصماً (والد خود) قد شغف بجاريته حبّاً، ولذا فهو لم يعد يفارق دارة أخيه، متوسّلاً، وراجياً وصل الجارية التي كانت تقابل بالصدّ ودَّه، من غير أن يدري لذلك سبباً، وأنّه لهذا الصدّ، اعتلّ وساءت حاله، وحال أهله وداره. فما كان لمالك من حلّ سوى أن يغضي عن تباريح الجوى التي تنهش فؤاده، فيخلي عنقه من تبعات الهوى، ويضعها بين يدي الطرف الآخر. ولذا قرّر تحرير الجارية، لتصير حرّة تختار بإرادتها من تحبّ.

وهكذا، صارت محبوبة حرّة، وأنشأت بمالٍ منحها إيّاه سيّدها ذلك النزل، وأقامت فيه، وراحت تسترزق منه، وتُرْبي مالها بجدّها وعملها. وبقي مالك يتردّد عليها فيه، ويزيد بها شغفاً إثر كلّ نجاح

تحرزه، ويبثّها عدا عن لواعج الهوى وألم الفراق، هموم السياسة والرياسة.

لم تختر محبوبة أيّاً من الأخوين، وإذا كان هوى سيّدها الأوّل قد استحكم في قلبها، فهي مذ صارت حرّة، بدأت تتقبّل أخاه الذي يزيده فتوّة ووسامة، وترتضي أن يخلو بها سرّاً بين الحين والآخر، من غير أن توافق على أن تكون له زوجة، رغم أنّه طلبها للزواج مراراً حتّى أُرهقت روحه، ورغم أنّ ذلك الزواج كفيل بأن يجعلها سيّدة، ويكفيها كَبَد العمل وضيم البشر، لم تشأ بأيّ حال من الأحوال أن تكسر قلب مالك الأشجعيّ.

ونتيجة لذلك كلّه، وُلِدت (بهجة)، المغنية التي في النزل، والتي تقول محبوبة إنّها ابنة لتاجر عراقيّ كان يتردّد عليها، فحملت منه، ولم يعرف له أهل الرقّة ومعهم بهجة، إلى اليوم، شكلاً أو رسماً!

إلاّ أنّ المؤلم في الأمر أنّ محبوبة ذاتها، لم تكن موقنة من شخصيّة والد ابنتها، فقد وطئها كلّ من الأخوين مالك وعاصم في طهر واحد، وإن كانت نفسها تميل إلى أن يكون مالك هو الوالد. لذا كانت، وبكلّ ما أوتيت من قوّة وتأثير، تحيط بهجة بحصانة تامّة، أبعدتها بها عن كلّ من حاول من وَلَد البيتين أن يتقرّب منها أو يغازلها، أو يمدّ نحوها جسور حبّ أو رغبة.

-11-

أوشك مجلس السمر على الانفضاض، و لم يبق منه إلاّ الأقربون، فأدار إياد السلميّ عجلة الحديث نحو شأن نـــزوله إلى الرقّة، وأعلم سليمانَ ابن أخيه، وبعض قرابته، بأنّ أوان ذلك قد أزف، وهـــاهي لبانة قد عادت، وهي تصرُّ على عملها في النسخ، وتجد في سوق الرقّة مأرباً، ثمّ إنّهم على عادة أهلهم، سيصطافون في الدير، ويتربّعـــون في الرصافة، ويشتّون في الرقّة. آنئذ، انجلى لسليمان شأن الظلّ العـــابر، واستوثق حينما دعا إياد ابنته لتلقي التحيّة علـــى أبنـــاء عمومتـــها، ولاسيّما سليمان الذي لم تعرفه قبلاً، إذ غادر إلى بلاد العجم، وهي ابنة مهد.

حينما أقبلت لبانة على المجلس، وجدت سليمان أشـــبه ببغـــل، فخاب أملها في الوهج الذي لفحها عند سماعها اسمـــه يتـــردّد منـــذ وصولها، لاسيّما أنّ نفسها حدّثتها في الهنيهات السابقة، أنّها ســـتلقى رجلاً بهيّ الطلعة، أسوة بمن عرفت من رجال بني سلم، فراحت تقتنص من تضاعيف السلام والكلام شذرات من الشبه بينهم وبينه: شعورهم مسترسلة، وشعره أجعد، ووجوههم حنطيّة إلى بياض، ووجهه داكـــن إلى صفار، وعيونهم كحلاء واسعة، والصغيرة منـــها لوزيّـــة، وعينـــاه صغيرتان مدوّرتان شهلاوان، وقاماتهم غالباً معتدلة إلى طول ورشـــاقة، وهو متوسّط الطول، ممتلئ بلحمه الذي أبداه أكثر كهولة ممّا هو عليه،

في بُرْدٍ يمنيّ أبيض، ينشقّ عن صدر زعر[1]، تنوس فيه تميمة ما، يحملها إبريم جلديّ متعدّد العقد، وله عباءة من وبر الجمل الشاميّ، لا يرتديها، بل يلفّها حول رقبته.

لم تكن هيئته مألوفة للبانة، بل بدا منفّراً في شكله المفارق، وهندامه الذي لا دالّ فيه على الثراء الذي وصف به، لكن ما لم تقع لبانة على سببه، هو طيفه الملحاح الذي أقام بين جفنيها طوال اللّيل، فحال دون إطباقهما.

غادر سليمان بن زياد السلميّ، منذ يفاعته، إلى (تبريز) من بلاد فارس، حيث أخواله، وكان مغرماً أيّام طفولته بالسّجاد الذي كانت أمّه (خاتون) تحوكه على نولها في بيتهم في دير زكّا. وفي واحدة من السنين العجاف التي حلّت بالرقّة، فلم تُبق ولم تذر، غادرت أسرة زياد إلى تبريز، حيث لخاتون رزق هناك وفير، فكانت أيّامهم، إذ تكشّفت لسليمان هناك أسرار عمل السجّاد، وراح يتفنّن في صنعته، حتّى تفوّق على أربابها، ففضلاً عن إحكام الحرفة الفارسيّة، كانت النقوش التي يبتدعها نفيسة، فيها روح موطنه الرقّة، حيث تجتمع فنون الشام وبغداد وبلاد الروم، فراجت بضاعته، وأثمر ماله. إلاّ أنّ شِباك تجّار تبريز راحت تصطاد في بحره، وبدأ الشعوبيّون منهم يكدّرون صفو عيشه، في الوقت الذي بلغ فيه حنين أبيه زياد إلى الرقّة منتهاه، وكان يلحّ على أن يكبر أحفاده هناك في موطنهم، فعاد سليمان في قافلة مهيبة، فيها أهله جميعاً، أبواه وزوجته الفارسيّة، وأولاده السبعة، ومعهم جوار كثيرات، وغلمان، كانوا يعملون في محترفه، الذي انتقل إلى دير زكّا، وتوسّع، وطبّقت شهرة نتاجه الآفاق، حتّى اختصّ بفرش قصور الخليفة،

---

1 قليل الشعر.

والأمراء، ودور الولاة، والأثرياء، فكان تجّار الشام، والعراق، وبـــلاد الروم، يقطرون قاطرات من سجّاده إلى بلادهم، من غير أن يلتفتوا إلى البضاعة العجميّة في أرضها، فبضاعة سليمان مثلها إن لم تكن أجـــود، وسعرها أرخص، ومكانها أقرب.

-12-

حين أقبل سعد، ومعه حارثة، نحو مالك الأشجعيّ، كان الأخير يقف على التلعة التي تعلو ذلك الجزء من أرضه، ومثل عرّاف يقرأ الكفّ كان يرقب وجهة الماء في سيره من النهر باتجاه الأرض، وفاقاً لخطوط عديدة خطّها فلاّحوه، ثمّ راح يومي لهم بعصا في يده أن يشقّوا الأديم في أغزر الخطوط تدفّقاً، لتكون القناة التي ستروي التراب العطشان.

ارتقى سعد وصاحبه التلعة، محاذيَين الرجل، وراح سعد يجيل بصره في حمرة الأرض التي لم يجد لها حدوداً:

- أكُلُّ هذا الملك لك؟!

ردّ مالك بفتور:

- بل هي أمانة للّه عندي!

ردّ سعد:

- "وضرب الله مثلاً قريةً كانت مطمئنّة، يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون".

فأسرّها مالك في نفسه، ثمّ ساد صمت، تحوّل إثره نحو ظلّ شجرة في طرف من الأرض، ولحق به الرجلان:

- اسمع أيّها القائد: مذ نزلتَ أرضنا، أعطينا الله عهداً ألاّ تكون من

فرائسنا، وإنّي مزمع وقومي على الكظم، والعفو، والإحسان، لأنّنا نعلم من أمر الفتنة ما لا تعلمون.

فهدّأ سعد من لهجته تجاه سَعة صدر مالك وقال:

- أليس حريّاً بك أن تظهر ما كتمه غيرك من الحقّ، وقد علمنا أنّك الجواد حين يضنّ الناس، والرشيد حين يجهلون!
- ليس فينا من يكتم الحقّ، ونحن نعلم أنّ الله لا بدّ مظهره، لكنّ ما تبغونه ليس بين أيدينا، وإنّكم إن أقمتم على طلبه، فلستم سوى زارعٍ في السبخ.
- لكنّ أخباراً لدينا تقول إنّ إرث الشيعة من أيّام صفّين متروك هنا، في الرقّة، وبين بيوت أهلها، وإنّما نريده لا لشيء سوى وأد الشرارة الكفيلة بأن تضرم النار المكنونة بين الجوانح، والتي يظنّ الكثيرون مثلك أنّها قد خبت. فإن خرج مصحف فاطمة إلى العلن أثار الدماء من جديد، ونحن نخشى على طويّة أهل هذا المكان الذي لم يشهد حروباً منذ زمن طويل.

سكت مالك، وطال سكوته، فاستحثّه سعد:

- ألا تملك جواباً لطلبنا؟!
- أيّها القائد: تلك أيّام عافانا الله من أن نغمس أيدينا فيها، فلم نغمس فيها ألسنتنا؟! فإذا كففتم عن الحديث في هذا الأمر بين الناس، فأنا أكفل لكم ألاّ يخرج المصحف، لو كان موجوداً هنا، ثمّ ما الذي سيظهره اليوم، وقد كان متوارياً لمئين من الأعوام؟!
- وردنا أنّ أحدهم حفر بئراً في دار قديمة اشتراها، فوجده محفوظاً في كيس من الجلد، ولمّا أخرجه، وجده جديداً، وريح سيّدة آل البيت فيه، وكأنّه قد كان بين يديها من توّه!

- من أوردكم الأخبار إنّما أراد فتنتنا وضلالكم، وإن عزمتم على اقتفاء أثر الحكاية، فسنضلع في الدماء جميعاً، وسيقضي العشرات بسبب الدين، وبعد العشرات سينسى الناس دينهم، وسيتذكّرون الدماء فحسب، وستموت إثر الألوف ألوف، ولن تقوم للدين بفنائنا قائمة.
- إذن، فقصدنا، يا سيّد الرقّة، واحد، أن تبقى راية الإسلام في عليائها، وأن ننعم تحتها برضى الله ورسوله، وأولي الأمر منّا، وإنّما قصدناكم لنكون على هذه الحال في حجابكم.
- أيّة حال قصدت أيّها القائد؟
- الحال التي لا تقوم فيها للشيعة قائمة في هذه الأرض، ونحن نرى حبّ آل البيت ينمى بينكم ويزيد، حتّى صارت أبصارهم طامحة، وأعناقهم متطاولة، لا يكفّون عن طلب الولاية بين ظهرانيكم، وإنّ منكم من لم يعدلوا عن اعتقادهم بأنّهم أحقّ بالخلافة من أبناء عمّهم العبّاسيّين، الذين ما زالوا يوفون بما عليهم من حرمة القرابة القريبة من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أمّا أن يظلّوا على سعيهم للخلافة، فلا، وهُم لاحقّ لهم فيها، مذ نزل عنها الحسن بن عليّ لمعاوية.
- إنّنا نقيم سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيننا، ونحرص عليها أكثر من حرصنا على فلذات أكبادنا، لكنّ حبّ آل البيت شيء آخر. نعم أيّها القائد! والله إنّ لهم بيننا سلطاناً، لكنّه سلطان المحبّة، وهم به يأمرون وينهون. نحن نعرف ما بهم، وأنتم لا تعرفون، إنّ بهم فصاحة، وصباحة، وسماحة، ولهم نجدة وحظوة، حتّى إنّك تجد الرجل منهم وفي مفرقه ريح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكيف نكفّ عن حبّهم!؟ وإن كان لغيرهم من الأحياء منّا طاعة،

فإنّنا لن نبرأ من حبّ من مات، فإذا ما توخّيتم السلامة أيّها القائد، فكونوا في ريحنا، ونحن نسوّي الأمر الذي كدتم تفسدونه بينكم وبين أهل الرقّة، إذ جعلتموهم بشدّتكم مثل رجل واحد مصدور، وسينفث في وجهكم.

حتّى هنا، توقّف الحوار بين سعد ومالك، ومضى القائد وصاحبه راضيين، أكثر من كونهما غاضبين، وكذلك كان مالك. وفي الطريق، قال حارثة لسعد عبارة واحدة، سيحتفظ بها إلى حين:

- إنّ هذا رجلٌ يا سعد، فاستوصِ به خيراً!

-13-

لم تتذكّر لبانة أنّ ناب الغيرة قد انغرس في قلبها قبل اليوم الـــذي أبصرت فيه سليمان و(ديجور) منفَردين، والنول ثالثهما. ففـــي ذلـــك الصباح الذي خرجت فيه إلى ما وراء البيوت، وجدت نافذة مشرعة، وجسدين منحاها ظهريهما، واستقبلا نوراً قادماً من باب بعيد. كانت تلك نافذة الغرفة الفسيحة التي جعلها سليمان في الجهة الشـــرقيّة مـــن داره. غرفة متطرّفة، ولها شرفة صغيرة لم ترَ لبانة لها شبيهاً، ذلك أنّها لا تنتهي بفضاء، بل بمشرفيّة من الخشب المطليّ بالأزرق، والذي تتعامـــد قضبانه مشكّلة معيّنات صغيرة تحكم الهواء والضوء، وتنفتح في وسطها نافذة على ما وراء البيت، الذي تحوّل إلى جنينة صغيرة مـــن شـــجر الرمّان وغصون اللّيلك، يأوي إلى النافذة هدهدان فراتيّان، جعل لهمـــا سليمان فيها مطعماً ومشرباً، فضلاً عن سرب حمام يحطّ ويطير، أيّـــان يحلو له.

حينما زارت لبانة المكان للمرّة الأولى، وفي غيـــاب ســـليمان، وقعت في أسره، ولم تتخيّل أن يكون لامرأة سواها. يومها وقفت وقد أخذها بياض الجدران الذي يترك في النفس أثراً مختلفاً تماماً عمّا يتركه لون الطين الذي اعتادته عمائر الرقّة. وطويلاً، راحت تتأمّل الأرضـــيّة التي تتوسّط المكان: فسيفساء بصورة غزال أكحل، بقرنين صـــغيرين، متأهّب للقفز، قائمتاه الأماميّتان مرفوعتان، وساقاه مـــا زالتـــا علـــى

الأرض، ملتفتاً نحو الخلف بجيد خلاّب، تتناوب على جسده قطع الغضار الصغيرة بلونين، ترابيّ داكن وأصفر، ويقال إنّ هذه الأرضيّة تعود إلى عهد سابق، وقد أهدتها إلى سليمان واحدة من السريّات الثريّات في الرصافة، وهي امرأة من بني تغلب، ورثت الأرضيّة عن (تيودورا) إحدى جدّاتها التي زانت بها أرض حجرتها في قديم الزمان. ويقال أيضاً إنّ المرأة التغلبيّة التي قدّم لها سليمان سجّادة تحمل صورتها، قُتلت، وبعدها اختفت السجّادة. أمّا الأعجوبة الأخرى التي تزين المكان، فهي القطعة النفيسة التي يزدان بها صدر الغرفة، ولا شيء غيرها على الجدران العارية، إنّها قطعة من (قطف كسرى) ليس كمثلها شيء، بعد أن فُقدت شقيقاتها من بلاد الشام والعراق. وقطف كسرى سجّادة ضخمة رائعة الجمال، لم يعرف التاريخ مثلها، تبلغ رقعتها ستين ذراعاً في ستّين، نُسجت من الحرير، بشكل حديقة غنّاء، ممرّاتها من خيوط الذهب، وينابيعها من خيوط الفضّة، وأعشابها من زمرّد مثبّت عليها، وقد رُسمت أشجارها وثمارها وطيورها بخيوط الذهب والفضّة، ورُصّعت بنفائس الأحجار من مختلف الألوان. وكانت هذه التحفة تُبسط في أرضيّة إيوان الأكاسرة في فصل الشتاء، عند فقدان الرياحين، فيشربون عليها، مستمتعين بمنظرها. وقد عرف العرب المسلمون هذا القطف إثر فتح المدائن، على يد سعد بن أبي وقّاص، الذي جمع الخُمس[1]، وأدخل فيه كلّ ما أراد أن يعجب منه الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، من ثياب كسرى، وحليته، وسيفه. فلمّا قدمت الأخماس على عمر، قسمها في الناس، ثمّ قال: أشيروا عليّ في هذا القطف، فاختلفوا، فقطّعه بينهم، ويقال إنّ عليّ

1 جزء من الغنائم التي يغنمها المقاتلون في المعركة.

بن أبـــي طالب رضي الله عنه، أصاب منه قطعة، باعها بعشرين ألفاً، و لم تكن بأجودها!

لم يرث سليمان قطعة القطف المعلّقة على جداره، ربّما اشـــتراها في واحدة من رحلاته، ويقال إنّها هديّة أخرى، جاءتـــه مـــن امـــرأة أخرى، عربيّة حجازيّة، كان قد عرفها في تبريز.

* * *

منذ ذلك اليوم، أطلقت لبانة على المكان اسم (عرش ســـليمان)، وعشقت الشرفة، والنول، والأرضيّة، والقطف، والهدهدين.

كان الغموض الذي يلفّ حياة سليمان حبلاً يشدّ النساء إليـــه، ورغم أنّ لبانة تعرف أنّ أكثره من خيال بنات جنسها، الذي صادف في نفوس رواة الرقّة هوىً يُزْجُون بحكاياته أيّامهم، فقد صدّقت أكثره، صدّقت لأنّها كانت في أمسّ الحاجة لتصدّق، فترهب نفسها، وتحيد بها عن هذا المغرم. لكنّ ديجور هي المرأة التي لم تحسب لوجودها من قبـــل حساباً.

قدمت ديجور مع سليمان من تبريز، اسمها (جيهـــان)، ولشـــدّة بياضها كنّاها سليمان بـــ (ديجور)، على عادة العرب، الذين يكنّـــون الشيء بضدّه، تيمّناً.

كانت أقرب جواريه إليه، تحمل عنه معظم شغله، وتحمل في كثير من الأحيان همّه، ولا فضيلة لها في الحسن سوى البياض والســـواد، إذ تجد لبانة شكلها غريباً ومنفّراً. وجنتاها غائرتان، وذقنها طويلة تنتـــهي بحدّة، عيناها سوداوان، صغيرتان، مبطّنتان، تبدو بهما وكأنّها استيقظت من النوم للتوّ. كلّ ما فيها دقيق وقابل للكسر: أنفها الصغير، وأسنانها التي تصغر أسنان قيس، وكتفاها الضيّقان، وترقوتاها البارزتان، وكلّما واجهتها لبانة فتّشت عن النهدين في صدرها، فلا تجد لهما أثراً.

لا تُقبل ديجور سوى على الألوان الكامدة: الرماديّ، والأسود، والأبيض، والترابيّ، فتبدو مثل كائن نورانيّ مهموم بحراسة العرش، ودائماً تكشف عن شعرها الفاحم المسترسل، وعن ذراعيها إلى الرسغين، وكثيراً ما ينحسر كمّها الواسع، فتغرق عينا الناظر في ممرّ من البياض تحت إبطين نظيفين، كأنْ لا منبت للشعر فيهما.

لم تستطع لبانة أن تذبّ عن رأسها رسم سُلاميّات ديجور الحليبيّة، التي تكاد لدقّتها تختفي وراء الخيط، في حركة سريعة على أوتار النول، تجاورها أصابع سليمان الغليظة الداكنة.

كانت تجلس على مقعد خشبيّ أمام الآلة، ويقف هو بحذائها، فتكاد تدانيه طولاً في جلستها. أصابعها تلعب على جسد السجّادة الذي يتخلّق بينها، في حركة موقّعة ورزينة. يتوقّفان لحظة، يتقارب جسداهما، يتلامس الكتفان، ينحني الجذعان قليلاً، يرفعان خشبة النول معاً، يعقدان خيوطاً جديدة، ويعودان لحركة الأصابع ذاتها.

انتظرت لبانة لحظة عناق الأصابع، فلم تأت إلاّ في خيالها. كانت تكتم أنفاسها كي لا تُشعر بها أحداً، لكنّ ضربات قلبها المغتاظ كادت تطغى على أزيز النول العتيق الذي يَمنع سليمانُ غيرَ ديجور من الاقتراب منه.

الآخرون يعملون في المحترف الكبير إلى جانب البيت، أمّا هو، سليمان، فيوجد موجوداته البديعة هنا، في هذا العرش الذي سيُظلّل أحلام لبانة حتّى النهاية.

-14-

كانت تلك من المرّات النادرة التي سمعت فيها (خود) (ريّا)، وقد باحت بما يمكن أن تخفق له جارحة من الجوارح، حتّى أنّ أمّ خود تقول لها دائماً: إنّ ابنة عمّها ريّا قد أكنّت مكنوناتها في صندوق من الشغاف، ابتلعت مفتاحه إلى الأبد! فريّا لا تحدّث أحداً بما تحبّ أو تكره، ولا أحد يعرف إن كانت فرحة أم حزينة! تبدو دائماً امرأة جميلة بقسمات مضلّلة، تماماً مثلما هي حياتها، حياتها التي قد تبدو غاية في السكينة والنجاح، مثلما قد تبدو أشبه بعقوبة.

لم يُشتهر عن الأشجعيّات جمالهنّ بقدر ما عرفن به من الفطنة، والظرف، والجرأة، وحبّ العلم والعمل، فضلاً عن نبلهنّ، وشهامتهنّ، وكرمهنّ، وأياديهنّ البيضاء في سبيل الله! لذا كنّ مطلب الرجال الذين يجدون فيهنّ ما لا يجدونه في غيرهنّ من حلاوة اللّسان والروح، التي تصير في عيونهنّ بريقاً ساحراً، أيّاً كانت العيون: صغيرة أو كبيرة، سوداء أو شهلاء، حتّى ليقال إنّ ما في كنانة الأشجعيّة، يردي الفارس عن ظهر جواده، وإنّ لسانها يعقد عزائم الرجال أو يفلّها، وكم من رقيّ حرّم على نفسه بعد الأشجعيّة النساء! غير أنّ لريّا من دون بنات عشيرتها، جمالاً خاصّاً، ورثته عن أمّها، التي تنتمي إلى عرب سماوة العراق، والتي نالت الأخيرة أكثره من أمّها الروميّة.

لم تعرف ريّا أمّها طويلاً، إذ قضت سريعاً بعد أن أنجبتها وأخاها عمر، تاركة لها ذلك الحسن الفريد. فهي بيضاء بعينين خضراوين، وشعر كستنائيّ متموّج، وفي بشرتها نمش محبّب تحت العينين وأعلى الأنف، قامتها باسقة، وجسدها لحيم، فإذا ما قعدت ظنّها الرائي متهودجة، وإذا ما مشت تهاوت مثقلة بلحمها، بطيئة الخطو والغضب، سريعة العمل والإنجاز، كثيرة الصمت، قليلة الكلام، لها أطفال أربعة، أكبرهنّ بنت في ربيعها العاشر، وثلاثة ذكران، وتتحسّس جنيناً خامساً يتشكّل في أحشائها.

أمّا زوجها، فهو (حسن) ابن عمّها شجاع الأشجعيّ، والذي يعمل مع أبيه وأعمامه بتجارة الخيل ومستلزماتها، ويحبّ زوجه حبّاً جمّاً، إلاّ أنّ ريّا ما أحبّته يوماً، ولم تحملها تلك العشرة الطويلة، التي أفصحت عن طيب نفسه، وشهامته، على الحبّ. كانت ريّا تبغض حسناً، وتداري عنه هذا البغض الذي لم تجد له سبباً فتجتثّه، لقد أعيتها التكهّنات، إلى أن ركنت إلى ما وجدته من أنّ القلب يأبى أن يمتلئ بحبّ رجل ما لم يفرغ تماماً من حبّ الآخر، وأنّ الهوى لا يُدفع بالهوى كما تردّد صويحباتها.

كانت ريّا تحبّ رجلاً آخر، هو (حسن السعديّ)، وكان من موالي بني أشجع، مجوسيّاً من الحيرة، دخل الإسلام، وحلّ وأهله الرقّة منذ دهر، وعملوا عند بني أشجع في صناعة السروج، ونشأ هو في كنفهم، قويّاً وجادّاً، وعارفاً بما استتر من معارف أهل عصبه، متكلّماً بلسانهم عن النور والظلام، وعن الحقيقة والزيف، وعن الظاهر والباطن، ما جعل ريّا تعاف كلّ من طرق باب أبيها من أكابر رجال الرقّة وما حولها، وتعلق حبال هوى حسن السعديّ، الذي نذر لها كلّ ما أوتيه من بهاء، وحنكة، واتّقاد. ظلّ يحبّها وتحبّه عشر سنوات، ينام

كلّ منهما على مكابدات الأشواق، ويستيقظ على تهديد الأقارب وعذل الأباعد. وفي اللّيلة التي شارفت فيها روحاهما على حدود الجسد، تزوّج حسن السعديّ بريّا، رغم أنف كلّ رجل وامرأة في الرقّة، لكنّه قبل أن يبني بها طلّقها، ولم يعلم أحد حتّى الآن أسرار ما دار في تلك اللّيلة التي فقد الرجل بعدها عقله، ثمّ أودعه أهله في بيمارستان في دير زكّا. بعضهم قال إنّ سحراً لا فكاك له انعقد بينهما، وآخرون قالوا بل هو الملل بعد عِشرة سنوات عشر، ثالثون رأوا أنّ الأمر خارج عن إرادة الزوجين...

بعد حسن السعديّ أعرضت ريّا عن الرجال، كانت روحها عليلة، وكذلك جسدها، ذاهلة باستمرار عمّا يُدار حولها. فقد تركها حسن على حين غرّة، ثمّ جُنّ، وراح ذووه يلقون باللاّئمة عليها. ظلّت تتردّد عليه في البيمارستان، فتطلع إلى الدير بعلم أبيها وإخوتها ومن غير علمهم، فحبسوها وضربوها، وكووها عند الأطبّاء، فلم يُخرج ذلك كلّه حسن من روعها، وحينما صار شأنها حديث الركبان، زوّجها أبوها بحسن ابن عمّها، الذي لم تثنه كلّ هذه الأحداث عن الارتباط بالمرأة التي ما رامت أن تكون أمل طفولته وصباه.

لم تصدّق ريّا يوماً أنّ حسن السعديّ قد فقد عقله، كما يُشاع، فكلّما رأته في البيمارستان، تجده كما عرفته في رباطة جأشه ورزانة منطقه. كان يحدّثها أحاديثهما العذبة القديمة، إنّه هو كما عرفته، يبثّها لوعاته، ويتغزّل بحسنها، ويفصح عن رغباته الحارّة بامتلاك جسدها، وكلّما سألته عمّا جرى في تلك الليلة التي خلا فيها بها، وعن الطارق الذي طرق بابهما فأخذه معه، اضطرب حسن السعديّ، وتشنّجت أعضاؤه، وطفق ينتحب، ويصيح، ويضرب رأسه بالجدار، حتّى يجتمع عليه الخلق، فيعودون به إلى حيث يقيم.

لم تمنح ريّا بعد حسن السعديّ روحها لأحد سوى لهذا الطين الذي تصيّره خزفاً، حتّى أولادها لم يحظوا إلاّ بصرامتها، كانت تقوم بواجباهم فحسب، تربطهم في محمل قماشيّ على صدرها وظهرها، وتغادر الدار باكراً إلى حانوتها. عاشت مع زوجها حسن الأشجعيّ وهي تراوح في مشاعرها بين المقت والشفقة، حزينة عليه، ساخطة على نفسها وهي تراه يبذل كلّ ما في وسعه لإسعادها. لم تكاشفه مرّة، أو تبدي له ما تكنّ، و لم تتحدّث معه عمّا تحبّ أو تكره، عمّا تريد أو ممَّ تنفر، حتّى أيقن أنّها خُلقت هكذا، باردة، جادّة، وأنّ الكمد جزء لا يتجزّأ من محيّاها الجميل. والذي كان يعزّيه أنّها لم تنفر منه يوماً في الفراش، كان كلّما طلبها، وجدها مثل ضبعة، في اللّيل كما في النهار، إذ يمرّ بها في حانوتها ضحى، يتأمّلها وهي تجهّز الطين، أو ترسل آلتها، فتتوهّج دماؤه، فيغلق باب الحانوت عليهما، ويأخذها بكلّ ما أوتي من شهوة، ويمضي تاركاً إيّاها تقضي سحابة يومها في مقت، لا تعرف بعده الرجوع إلى ما كانت فيه من شغل، ولطالما حاولت ريّا استمالته ليلاً، كي يتركها في النهار، لكنّها لم تكن تنجو منه إلاّ قليلاً، ولا عزاء لها إلاّ طيف الآخر، فتستحضره، مؤكّدة لذاتها على أنّ أحسن ما في حسن هو اسمه الذي يمكنها أن تترنّم به أمام الجميع بأمان.

-15-

أغلقت لبانة دواتها، ومسحت قلمها بباطن ممسحة من الصوف، ووضعته في حافظة من قماش قطنيّ، ثمّ لفّت مفرشة الأقلام، وبسطت كفّيها على فخذيها، وراحت تقبض أصابعها وتمدّها في حركة منتظمة. وفجأة شعرت بدفق ألم يسيل كماء النار من رقبتها إلى كتفيها، ثمّ ينتشر إلى صلبها. غالبت الألم، وقامت لتتوضّأ وتصلّي ركعتي شكر لله تعالى، وذلك كان دأبها، كلّما نجزت نسخة من كتاب بين يديها.

أطلّت من نافذتها، فرأت الوقت ما يزال مبكّراً، وشمس الضحى ما تزال في أوّل خطوها، لذا قرّرت أن تحزم ما أمكن أن تحتاجه ليومين من متاع، وأرسلت (ريحانة) خادمتها لتأتيها بقيس من حلقة القراءة في المسجد، فيطلعون إلى دير زكّا، يقضون بعض الوقت الذي تكافئ به نفسها على ما أنجزت، وتروّح به عن قيس الذي يهوى الانطلاق بين البساتين، واللّعب مع أبناء أخواله في ساحات الدير، ومشاكستهم خدمه، وأكثر ما تتوق إليه روحه الغريبة هو الاستظلال بظلّ جدّه إياد.

عادت ريحانة بكلّ من قيس وخلَف الذي استخدمه إياد كي يؤدّي لابنته الخدمات التي لا تقدر عليها خادمتها، ريثما يرتّب أمر حلوله الرقّة. وحينما أحضر خلف الرّكوب اللاّزم، انطلقوا جميعاً

باتّجاه السور، عبروا البساتين، وهمّوا بصعود القنطرة على (المريء)[1] ليصلوا إلى أراضيهم في نهايتها، إلاّ أنّ قيساً أصرّ على أن يخوض وخلفَ، ببغلته في الماء، ولم تثنه أوامر أمّه، ثمّ تقريعها وصراخها، عن رغبته تلك، فقد شاهد في رحلاته المتعدّدة بعض الفلاّحين وأبناءهم يفعلون ذلك، بقصد غسل دوابهم، وكان من يومها يتحيّن الفرصة ليفعل ذلك، فراح يصيح بأمّه: إنّ القناطر للنساء والعجائز...

وكان خلف قد خفض له جناح التلبية، فهو يحبّ الصغير، ويشفق على غربته، ولا يرفض له طلباً. وفي حين وصلت كلّ من لبانة وخادمتها الضفّة الأخرى عبر القنطرة، ظلّ قيس يلبط الماء، ويتراشق به وخلف، بل جاوز الأمرَ إلى أن نزل عن ظهر بغلته، واعتلى ظهر خلف الذي سبح به إلى الضفّة القريبة، والبغلة تعوم وراءهما، ورسنها في يد الصغير.

مضى الوقت في تجفيف قيس، وتبديل ملابسه، وقد نفد من لبانة كلّ صبر، راحت تضرب قيساً، وتقرّع خَلفاً الذي سيتسبّب بلا شكّ في مرضه، فهذا الخريف غشّاش، شمسه حارقة، ما أن تستعدّ للزوال حتّى يسري في الفضاء سمّ البرد الناقع. وهذا ما حصل فعلاً، فما كادوا يصلون دار إياد السلميّ، حتّى بدأ قرص الشمس يحمرّ متوارياً وراء تلال الرقّة الغربيّة، وراحت البرودة تحلّ في كلّ مكان.

لم يكن أحد في الدار، فقد نزلوا جميعاً إلى الرصافة لحضور عرس ابن أحد الأصدقاء، ولم يبق سوى خادم قد أوقد في جوسق القصب المجاور ناراً، تحلّق حولها بعض الفلاّحين يستعدّون لتناول عشائهم.

---

1 نهر صغير أُجريَ من الفرات.

كانت الرحلة قد أرهقت المسافرين على غير المعتاد، عاد خلف إلى الرقّة، ووسّدت ريحانة الفرش، بعد أن غسلت قيساً بالماء الدافئ، وناولته عشاءه، واستسلم للنوم كما استسلمت، عند أوّل سفور القمر.

بقيت لبانة وحدها، فشعرت بوحشة شديدة، انقبض لها قلبها، وكأنّها ليست في المكان الذي هي منه، وهو منها. جلست أمام الباب تستأنس بأصوات العابرين، لكنّ الناس في مثل هذا الوقت يخلدون إلى بيوتهم من كدّ نهارات الفلاحة. أخمد الخادم ناره أيضاً، وأوى إلى مسكنه، تاركاً للبانة رائحة خشب الزيتون المحترق التي تحبّ، ولم يبق ما يبدّد العتمة سوى نور شحيح لقمر غالباً ما يتوارى خلف غيوم آخر الخريف، وأضواء سُرج تتراقص في قلاّيات رهبان الدير التي تتناثر على البعد الشاسع أمامها مثل نجوم تتهاوى، فيثور لها عواء الضباع في البراري المحيطة.

راحت لبانة تنوح على نفسها في نفسها مثل طفل ضائع: أريد أمّي، أريد أبي، أريد إخوتي... وقبل أن تستسلم لرغبة عارمة بالبكاء، سمعت عشرقة[1] ورق الخريف يتكسّر تحت خطوات وئيدة، ومرّ سليمان ببوّابة الدار، فلمح شبحاً جالساً في العتمة، صاح، وهو يعرف بغياب أهل الدار:

- من؟!
- أنا، لبانة!

اقترب منها، فراح قلبها يخفق لمرآه، وأخذ شعور بالحبور ينتشر في روحها، وما أن صار قبالتها، وأظلّ جسدها بعظيم ظلّه، حتّى أسبلت عيناها ببكاء حارّ، أمّا هو سليمان، فكان في دهشة من أمرها وحيرة، فما كان منه إلاّ أن أخذها بين ذراعيه، وهو يهمس:

---

1 صوت أوراق نبات العشرق إذا ما حرّكتها الري

- إليّ... إليّ يا لبانة.

سكنت لبانة هنيهة لم ترد لها أن تنتهي، لكنّها لم تستطع إلاّ أن تبتعد قليلاً، فلفّها سليمان بعباءته، وقادها من يدها، من غير أن ينبس أحدهما بحرف.

خطوات قليلة وراء البيوت، تفصل دار إياد عن دار زياد، التي غيّر سليمان مذ جاء الكثير من ملامحها. دخلت لبانة الغرفة الغربيّة المتطرّفة التي اختصّ بها سليمان، ونذرها لعمله، فأجلسها على الأريكة التي بدت وحيدة، ولم يكن ضوء السراج كافياً لتبيّن معالم المكان، مثلما لم يكن لدى لبانة قوّة لتفعل ذلك. أسند ظهرها إلى وسادة فصلت بينها وبين الجدار خلفها، ونزع خفّيها من قدميها، واستبدل بالعباءة دثاراً من وبر الماعز دثّرها به. غاب قليلاً، ثمّ عاد يحمل صحيفة فيها طعام: حساء الكمأة المجفّفة، وطير قطاة مشويّ، وخبز حنطة. كان سليمان يتحرّك بثقة وبلهفة، وكانت تراقبه بدهشة وامتنان. تذكّرت لبانة أنّ أحداً لم يصنع لها طعاماً منذ زمن طويل، منذ ماتت أمّها، ولم يهتمّ أحد بأن يغطّيها، حتّى زوجها الذي اعتاد على أن يعرّيها فحسب. لم ينتظرها أحد يوماً عند مغادرة أو أوبة، ولم يأخذ رجل أو امرأة رأسها بمثل هذا الحنان من قبل.

كانت جائعة جدّاً، وكان جسدها كلّه يؤلمها، وروحها كانت متعبة، ولم تكن تقوى على السير عكس الريح، فأكلت، وغسلت وجهها ويديها بماء من ليمون وورد، حضّره لها سليمان الذي جلس إلى جوارها، وأسند رأسها إلى صدره، وطفق يمرّر أصابعه على ظهرها جيئة وذهاباً، استسلمت لبانة لذلك الدفء كلّه، ونامت مثل جنين أرهبته الحياة، ففضّل العودة إلى رحم أمّه.

-16-

لملمت خود أطراف ثوبها الأرجوانيّ المسجّف بإبريم يحاكي لون الفضّة، واعتلت المصطبة المفروشة بسجّادة عجميّة بنقش "شجرة الحياة" في صدر ديوان دارهم، وجلست تدوزن أوتار الطنبور في حضنها، إلى أن أسلمت ذاكرتها إلى لحن بهيج.

دخلت أمّها مريم، وجلست قبالتها منصتة إلى الصوت الذي انضبط، وبدأ يصير غناء. لم يكن احتقان الأمّ خافياً على خود، فأوقفت عزفها، ونظرت إلى أمّها قائلة:

- مالك؟!

لم تترك الأمّ فرصة لأخذ وَ رَدّ، فقالت حازمة:

- أرثي لحالك!
- أعلم...
- وتعلمين أنّ صاحباتك بين أزواجهنّ وأطفالهنّ، وأنت في شغل الجواري، بين الطنبور والدفّ!

نظرت خود باستسلام وأردفت:

- وما لهنّ الجواري يا أمّي! ألا يتركنا الرجال إليهنّ؟
- بلى!
- ألا يحصّلن في ساعة ما تقضين عمرك كلّه دون بلوغه؟
- بلى!

- ألم يتركك عاصم الأشجعيّ أبـي، هنا في الـدار مـع الأولاد، ويلحق بجارية، ألم يغاضب أخاه دهراً من أجل جارية!

أطرقت الأمّ بوجوم، فأدركت خود أنّها قد جـاوزت الحـدّ في القسوة، فنـاورت كـي تحـوّل حنـق أمّهـا إلى شـفقة عليهـا، قائلة:

- يا أمّي، لولا طنبوري، حياتي وموتي مِثلان، ثمّ ماذا عليّ أن أفعل، وأنتم تمنعونني عن كلّ فعل؟! أودعتم عمـر في قلبـي طفلـةً، وأغلقتم عليه، وعمر كبر على قلبـي الذي ما عاد لـه براحـاً. قريناتي كلّ في شغلها، تلك في حانوت الخـزف، والأخـرى في حانوت الوراقة، وثالثة في القِبيَة تزرع زرعها، وأنا أجلس في الدار بانتظار الخاطب الذي يليق بنا جميعاً، نحن، وأخوالي، وأعمـامي، وأنسبائنا، وأصهارنا...
- يا ابنتي: لا يليق بك العزف والغناء وأنت أحفظ بنات الرقّة لكتاب الله، وأكثرهنّ علماً بحديث رسوله، وأعـرفهنّ بأخبـار العـرب وأحاديثهم، وما في هذه البطاح كلّها صبيّة تدانيك في فروسيّتك، فدعك من الدنايا، اجلسي، واتلي المصـحف الـذي تحفظـين، ستفقدين حافظتك يا ابنتي، وتبدّدين علمك!
- علم! بئس العلم علم لا ينتفع به! أليس الأشرف أن أعلّم صـغار المسلمين؟ وقد منعتموني عن ذلك أيضاً، ما كان يضـيركم لـو تركتم لي حجرة من حجرات هذه الدار الواسعة، لتتردّد عليهـا الصغيرات من حولنا، فيدرسن عليّ كتاب الله، فيحفظ الله الـدار وأهلها، ويزيد بركتها!
- العلم مطروح في المساجد، ولا ينتظر جهدك، ثمّ إنّ هذا مـا أراده أبوكِ.

- إذن، دعيني أسرّي عن نفسي، فإنّها والله تتوق إلى شريف المعنى في عذب اللحن، وكما ترين، فأنا أطرب هنا في حجرتي، أم تجدينني أغنّي في المقاصف والحانات!
- واجتماع البنات إليك في حالك هذه! وخروجهنّ بالخبر: خود، ابنة عاصم الأشجعيّ، تغنّي وتضرب الألحان، يا خود، أما علمت أنّ الناس تقتات على أخبار الناس، فيزيد حاقد، ويُكثر غيور.
- حسناً يا أمّي، فلتطيبي نفساً، اتركيني اليوم ورفيقاتي، وستكون المرّة الأخيرة التي أغنّي فيها على الملأ.

ما كاد الحوار بين الأمّ وابنتها ينتهي، حتّى دخلت ريّا ديوان ابنة عمّها في طيلسان من الحرير الأبيض الذي لا تشوبه شائبة، وكانت قد عقصت شعرها الغزير في موجات نحو الأعلى، وثبّتت بينها مشطاً عاجيّاً على هيئة طاووس، ممّا أفصح عن لون آسر بين بياض كتفيها، حيث يطلع العنق من الخلف، وبين منبت الشعر عند رقبتها، الذي يصدر بلون شعاع الشمس، ثمّ يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى ما هو أكثر قتامة، ينتهي بلون حبّ الخرنوب، فبدت ملكة متوّجة ببهاء هادئ.

كانت خود قد وجدت على ريّا لما رأت من أواصر تمتدّ بينها وبين لبانة، لم تفاتحها بالموضوع، لكن استحلفتها ألاّ تكلّمها عن حالها وعمر. لقد قرّرت أن تطرده من قلبها، من غير أن تنكر أنّ ظهور حارثة الجهميّ بدأ يقود روحها نحو مسار جديد.

قالت ريّا بصرامتها المعتادة:

- كنت أحبّ أن تعلقي غير حارثة الجهميّ يا خود، فالجند لا عهد لهم سوى عهد الجنديّة، وهم حيثما حلّوا، تركوا نساء وذراري.

صمتت خود، وقد ضاقت ذرعاً بالنصائح والعظات منذ صدر اليوم، وتشاغلت عن التعليق على الكلام بسكب شراب الورد المبرّد في

كأس من البلّور الأبيض الرقراق، دفعت به إلى ريّا، التي تابعت من موقع صاحب الخبرة:

- أبوك لن يعطيك لحارثة الجهميّ، لا لسبب، بل لثلاثة: لأنّه من جهم، ولأنّه جنديّ، ولأنّه في الفريق الذي يحمل علينا لواء البغي! ثمّ إنّه دون عمر مظهراً ومخبراً.

قرّرت خود ألاّ تدع أيّ قول يستثير غضبها في هذا المساء الربيعيّ العاطر من أيّام الرقّة، الذي يعبق برائحة زهر اللّوز، والمشمش، والورد الجوريّ، فيترك في الفضاء ريحاً أقرب إلى ريح الجنّة، ترفده نسائم باردة، مقبلة من الفرات الذي يستلقي في سريره على بعد أذرع، وقد هدأ جنونه، بعد أن فاض السنة في موعده المعتاد، مودعاً على الضفّتين تربة صحيحة، وغنيّة، ستكون مصدر رزق وفير لأهالي الرقّة وما حولها، على مدارج الصيف المقبل، وإلى أبواب الشتاء.

ردّت خود على كلام ريّا بسكينة لم تُعرف عنها:

- فأمّا أنّ حارثة من جهم، فهو في أرومتها[1]، وأمّا أنّه جنديّ، فهو صاحب راية في سبيل الله، وأمّا أنّه حمل علينا، فما زال الأمر قيد التكهّنات، وأمّا عن مظهره ومخبره، فلو أنّ أقبح الناس وجهاً، وأسقطهم همّة، قال لامرأة تكابد العفّة مكابدتي لها: يا سيّدتي ومولاتي، قد أتعبتِ قلبي، وأرّقت عيني، وشغلتني عن مهمّ أمري، لملك عليها نفسها، ولناولته قلبها بيمينها، ولو كانت أبرع الخلق جمالاً، وأوفاهم كمالاً، فما بالك بحارثة، شجاع، وجواد، ومهيب أَنِف! ثمّ من قال لك إنّي أريد الزواج به؟!

- إذن تنتقمين من عمر!

---

1 أصلها.

- لا وربِّ عمر! لكنّي أرغب في معاينة أخلاق الرجل في هواي يا ريّا، إنّ في قلبي حبّاً كامناً كمون النار في الحجر، عمر تركه، فتوارى، وحارثة قدحه، فأورى.
- فإن عاد عمر إلى حضيرة قلبك، أو تعرضين عن حارثة؟
- بل آخذهما معاً، وأمتّع النفس بهما معاً!

بعد جملتها الأخيرة، نظرت خود إلى ريّا، تستطلع أثر الكلام فيها، وحينما وجدت ابنة عمّها في دهشة، ابتسمت بخبث، وكأنّها أرادت الثأر منها، إذ انتابها شعور حول أنّها قصّرت في دفع عمر نحوها:

- خود، ماذا أنت فاعلة؟
- خفت منّي أم عليّ؟!
- بل خفتُ عليك منك.

أمعنت خود في المناكفة، راغبة في أن تستبطن طويّة ريّا:

- أتخشين صاحب الجند يا ابنة العمّ! ألم يكن بالأمس حبل الأمان الذي نستعصم به!

لم يخطر في بال ريّا أنّ خوداً قد التقطت تلك الرجفة التي انتابت قلبها حينما شهدت سعداً يومئ إلى عناصره بأن يتحرّكوا ليؤمّنوا السوق في صباح اللّيلة التي أُحرقت فيها واحدة من أهراء القمح في الرقّة:

- ريّا، مالك وجمتِ؟

أعرضت ريّا عن الجواب.

- حسناً يا وفيّة، لا يخامرك منّي خوف أو قلق، كنت ألتذّ برجع الحوادث فحسب، هيّا أسعفيني بجواب شافٍ: ما الذي يدور الآن في مجلس سعد وحارثة وصحبهما، ألسنا وتد حديثهم الساعة؟ ألا

يقلّب الرجال صورنا، وحركاتنا، وسكناتنا، كما نفعل نحـــن، ألا يؤوّلون النظرة، ويحملون العبارة على أكثر من محمل، فيمتدّ بهـــم مجلس الشراب، إلى أن يرقدوا، وبين جفونهم تتـــراقص أطيافنـــا! حسرة علينا، فلا خمر تُفرح قلب المحزونة منّا، ولا طـــارق يأتينـــا برسالة تهيج الجوانح، أو بهديّة من طيب أو ديباج، تقول إنّ لنـــا مقاماً رفيعاً في قلب أحدهم. ثمّ يستنكر الجاهل عيش الجواري، ما لهنّ الجواري؟! أحسن منّي ومنك، مجالسهنّ عامرة بالأنس، أمّـــا نحن فإنّما نعْمر مجالسنا بالكلام!

تنهّدت خود تنهيدة سحيقة، وحرّرت ريشة معزفهـــا، وبـــدأت تلاعب الأوتار:

أتصـــحو أم فـــؤادكَ غـــير صـــاحِ
عشـــيّة هـــمَّ صـــحبُكَ بـــالرّواحِ

-17-

دلفت بعض بنات الأعمام، وأخذن أماكنهنّ على المصاطب في مجلس خود، ثمّ أقبلت لبانة ترفل في بُرْنُس موشّىً بخطوط بيضاء وسوداء، نضَته عنها، فبدت في هيئة بنات الترك، عليها سروال من الديباج الأخضر، ينجمع فوق كعبيها، يعلوه قميص مثله، لا أكمام له، وينشقّ عن صدرها بالمقدار الذي يسمح لذيل العقرب على نهدها أن يبدو بجلاء للناظرين، وقد علّقت في ساقها اليسرى إبريماً جلديّاً بلون اللّحم يَشْكُل تبيّنه على الناظر، فتبدو مسكوكات الفضّة وبينها الخرز الملوّن وقد رُصفت على جلدها رصفاً مثل خلخال.

كان كلّ شيء في لبانة أو معها، ليس كمثله شيء في الرقّة أو مع أهلها، بدءاً من إكليل الفضّة المزيّن بخرز أخضر وأزرق، والذي أحاط بشعرها الأحمر، وانتهاءً بالمداس الذي ليس إلاّ سيوراً قُدّت من جلد ثعبان مرقّط، بالرماديّ، والأبيض، والأسود.

تلك هي زيارة لبانة الأولى إلى دار عاصم الأشجعيّ، والتي ترجو لبانة معها عهداً جديداً لصداقتها مع الأشجعيّات اللّواتي آنست فيهنّ شرفاً ورفعة. رحّبت خود بلبانة، مغضية عمّا في نفسها من ضغينة خلّفتها غيرتها على عمر ليس إلاّ، ذلك أنّ لخود من السؤدد ما يمنعها من أن تضع نفسها في موضع تنهشها فيه الصغائر، لاسيّما بعد أن لمست من لبانة إعراضاً عن إثارة غضبة لها أو إحنة، إذ بدا أنْ ليس

للأخيرة في عمر أيّ مأرب، وأنّ نجم هواها إنّما يدور في فلك آخر، لا مكان لِعُمر فيه.

أدنت لبانة من خود علبة صغيرة مربّعة من أطلس ورديّ مذهّب، فيها تذكرة من وريقات عشر، نسختها لبانة بيدها، وقد جمعت فيها بعض أقوال حكماء الأمم في السرور والغمّ.

أجلست خود ضيفتها في صدر المكان، وقد أعدّت لها متّكأً وثيراً، وراحت الخادمات تدور على من في المجلس بكؤوس شراب الورد، وحلوى اللّوزينج.

أُخذت لبانة بالأبّهة التي تلفّ دار الأشجعيّة، وخامر قلبها شيء من أسى مشوب بغيرة، فخود تنعم بعين أمّها وأبيها، ولها حظّ من الحلاوة، والطلاوة، والقبول في النفوس، لا تدانيها فيه أنثى ممّن عرفتهنّ من نساء، ومع ذلك فهي تجمع إلى هذه الحظوة كلّها تواضع أهل العلم، وكفاية نفوسهم بزاده، ولو أنّ لِعمر حظّاً من سعادة في هذه الدنيا، لما اتخذ غير خود حليلة له، لكنّ الدم قد يكون حجاباً، يُبعّدُ مثلما يُقرِّبُ!

أدارت لبانة طرفها في المكان الذي لم تحظ بمثله لا في دار أبيها في الدير، حيث حياة الفلاحة تطغى على التفاصيل كلّها، ولا في دارها في بغداد التي حوّلتها وزوجها إلى معقل للنسخ والوراقة، أمّا هذا الترف الذي وجدته في الكثير من دور أهل الرقّة، فلا يقابله سوى ما عند أهل المال والسياسة من أكابر بغداد. لم ينبّه لبانة عن خواطرها سوى دخول خادمة، شرعت تضيء أركان المكان مع حلول المساء، فتشعل فتائل السرج التي تتوزّع في أركان الديوان. كانت عشرة سرج متوسّطة الحجم، تعلو رفوفاً حجريّة تبرز عن الجدران، وكلّ منها على هيئة رأس تنّين من الخزف الأبيض المنقوش بالأزرق، وقد فغر فمه، فثبّتت من

الفم زجاجة لا تكاد تُرى لرقّة قوامها، تبدأ بعنق ضيّق، يتّسع عند البطن، ثمّ يعود فيضيق، تتوهّج الشعلة الصفراء داخلها، وكأنّها انطلقت من فم التنّين للتوّ. راح النور الباهر يجلّي الأشياء لعين لبانة على غير ما رأته لأوّل وهلة، فما أن وقع نظرها على السجّادة التي تفترشها خود حتّى انقدحت في قلبها الذكرى. أدركت أنّ السجّادة بتوقيع سليمان السلميّ، إنّه النقش الذي يختصّ به سجّاده، ففي حين تشيع صورة النخلة في أغلب السجّاد الذي يعتمد شجرة الحياة، يتخذ سليمان من شجرة الزيتون أساساً لتصويره، فالزيتون يكثر في الرقة وما حولها، ويقلّ النخل، كما أنّه يحبّ أن يجمع إلى صور الحيوان والطير تحت الشجرة وحولها، صورة لجسدين مبهمين، تضيع ملامحهما بين شكل الإنس أو الحيوان، ومثل تلك التصاوير تغيب تماماً عن صناعة غيره.

اغتبطت لبانة بذلك الخاطر الذي آنسها، وقد حمل إليها خيال سليمان، فأنقذ روحها من بعض الغربة التي ألّمت بها، كان الطيف كما عوّدها صاحبه، يحتضنها بذراعيه القويّتين، يدني رأسها من شفتيه، يشمّ شعرها، ويدمدم بصوت تمزّقه الأشواق: ما أحرّكِ يا لبانة وأبردك! ما أحلاكِ وأمرّك! هيّا قومي أحرقيني بتلك الجذوة الموقدة. وقبل أن يتمّ سليمان كلمته يكون قد تهاوى بجسده المكين على الشعلة الملتهبة تحته، فلا يقوم إلاّ وقد صارت نارها رماداً.

-17-

لم تكذّب رياح الخماسين موعدها مع الرقّة وما حولها من أمصار الإسلام هذه السنة، فحلّت بغيومها الصفراء، وعجاجها الأحمر، قادمة من مصر، نحو نهر الأردنّ، فبادية الشام، تقود كلّ ما في طريقها من أحمال اقتلعتها من الأرض، أو تلقّفتها من السماء.

يكتسي كلّ شيء في مثل هذا النوء بالغبار، فتشحب خضرة الربيع، ويصفرّ الفرات، وتفقد مغاني الرقّة بهجتها، ويعتكر مزاج أهلها، فيعتصمون في بيوتهم رجاء انكشاف ذلك العجاج الذي ربّما يصل معه الغبار إلى ثيابهم في صناديقها، وإلى أوانيهم في رفوف خزائنها. وقد تطول نوبة العجاج تلك يومين أو ثلاثة، فلا تنقشع إلاّ بقدوم المزن المتهادي مع ريح الشَمال، أو مع الدَّبور[1]، فيغيث ماؤه البلاد والعباد، ويغسل الشجر، والهواء، والأرض ممّا ألمّ بها. تقضي بعدها نساء الرقّة أيّاماً أربعة أو خمسة، وهنّ ينظفن الدور والمساكن، مغتنمات مهرجان الطبيعة ذاك، ليعدن ترتيب الثياب والفرش، فيقصين ألبسة الشتاء ولوازمه، ويحزمنها في الصناديق بعد أن يدسسن بينها صرراً صغيرة من الشاش مملوءة بأوراق الورد المجفّف المخلوط بفتيت المسك، ويُدنين عدّة الصيف الذي يستعدّ ليطرق الأبواب.

---

1 رياح تأتي من الغرب.

ما أن يكفّ المطر الذي يكون قد جلا الأرض، والكائنات، والنفوس، ممّا علق بها من موسم العجاج، حتّى تطلع الرقّة على الدنيا من جديد، آية في الرونق والبهاء، ترى فيها أخضر الشجر على جانبي الجسر، وفي الرحبات، وحول مراكض الخيل، ألواناً، من الداكن إلى المشرق، فالأشقر الفتيّ، وترى النَّور الأبيض والأحمر، يكلّل الشجيرات على الطرقات، وبين المنازل، وعلى العرائش التي تتدلّى من شرفاتها. ومع حلول المساء، يعبق الهواء بعطر اللّيلك وزهر المشمش، فيوقظ بطيبه نجوم السماء التي تأبى إلاّ أن تسامر الرقيّين في مجالسهم على جسر المنصور، أو في مرابعهم في الرّصافة، أو في مشاربهم في دير زكّا، أو دير العذارى، أو دير العليل.

في مثل هذا الوقت من الزمان، يحنّ الناس حنيناً شديداً إلى موتاهم، إذ يذكّرهم عرس الطبيعة بمن غادرهم من أهل وأحبّة كانوا يتشاركون معهم البهجة في مواسم خلت، فيطلعون إلى المقابر، يغسلون الأضرحة، ويزرعون في ترابها شتلات الورد والريحان، ويقضون نهارهم يجدّدون عهد الذكرى لمن فقدوا، بقراءة القرآن عند الشواهد، وبتوزيع الفطائر المحلاّة أو غيرها من الأعطيات على المحتاجين، الذين يجدون في مثل هذه الأيّام موسماً غنيّاً للرزق، ثمّ يعودون قبل المغرب إلى أحيائهم، لابتدار مجالسهم وسهراتهم المفعمة بالضحك والأنس، وكأنّهم لم يقضوا سحابة يومهم في التأسّي والبكاء بين القبور!

بعد العصر، التقى الرهط من الفتية في جوسق (عمير) على الفرات، تحت جسر المنصور، وذلك بعد أن انتشر كلٌّ من عمله، مبكراً على غير العادة، فمثل هذا المناخ يقتات على نشاط الأبدان، ويغري أصحابها بالكسل، ويثير فيهم شهوة الراحة والتنزّه. اجتمعوا على المصاطب الحجريّة النظيفة، يشربون اللّبن المحلّى بالعسل، والمنكّه بماء

الزهر والقرفة، يراقبون الدمى تخطر على الجسر في أبهى طلعة، وأحدث لباس، يقتنينه لنـــزهات الربيع بخاصّة:

سهيل: ما بال بنات الرقّة، وقد ربا منهنّ ما كان ضامراً، وتكوّر ما كان منبسطاً! انظروا إلى تلك الأكفال التي تجرّها كلّ منهنّ خلفها، والله ما كانت فيهنّ بالأمس!

عمر: لعلّه خير هذا العام، وقد أصابهنّ على عجل!

منذر: بل هو عام العجّازات يا سهيل، سمعت بعض الجـــواري في الدار يحدّثن بمثل هذا الحديث، وقد أوصتني (بركة) أن آتي لها من المحلج ببعض الخرق من القطن لهذا الغرض.

سهيل: قاتلهنّ الله، ما أبدعهنّ وأخدعهنّ! العجفاء تغريك بلحم خلّب، والشحيمة تشدّ لحمها فتصير غصن بانٍ، وعليـــك أن تختـــار، فتحتار!

عمر: أمّا عنّي، فأجد أحسنهنّ الشحيمة في اللّيـــل، النحيلـــة في النهار!

علا صوت الضحكات، وارتدّ مع ارتجـــاف موجـــات النـــهر الصغيرة، التي تندفع مع النسيم، فتلقي بنفسها على الحصى والحجـــارة البيضاء، التي ترقّ على الشاطئ ساعة فساعة.

منذر: انظر.. انظر إلى هذه المهاة التي تتهادى هناك، أقسم برأس مرجانة جاريتكم، على أنّه وركها، وليس عجّازة!

سهيل: بل هي عجّازة يميزها الأعشى[1] في دكن اللّيل!

منذر: بل وركها.

سهيل: أتنافرني في ذلك يا منذر؟

---

1 من ساء بصره في اللّيل.

منذر: أنافرك يا سهيل!

سهيل: هيّا، قم، فانكز مؤخّرها بخيزرانتك، فيتبيّن لك الرشد من الغيّ!

انفجر كلّ من في الجلسة بالقهقهة حتّى سالت دموعهم، وقد لفى وقتئذ، أسيد ابن عمّهم بكر، مدركاً آخر الحديث، فأردف:

- تعساً لكم ما أخسّ حديثكم! أتتنافرون في أعجاز النساء، والردى قابع بين دوركم!

* * *

رغم ذلك الصخب كلّه، كان الهمّ الذي ركب كلاً من عمر وسهيل منذ حلول الوالي الجديد لم يفارقهما لحظة، فراحا يتداولان الأمر بينهما في درب القفول على انفراد، متّجهين نحو مجلس أهليهما:

سهيل: لا أدري كيف حلّ الجهل بأرضنا! فلم نكدّر عيشنا، ونسفك دماءنا، من أجل خصام لا أصل له بيننا وبين من نحن بينهم وهم بيننا؟!

عمر: من أجل كتاب لم نره يوماً، ولم يظهره أهله، أو يحاججونا فيه.

سهيل: مصحف فاطمة! أليس كذلك؟ والله ما عرفت حكايته حتّى الساعة، وأكاد أجزم بأنْ لا أحد في الرقّة يعلم فحوى ما يقتتل الناس من أجله، وهذا أعجب العجب!

عمر: كلّ ما سمعته عنه من بعض الإماميّة، أنّه كتاب حجمه يزيد عن حجم القرآن الكريم مرّات ثلاث، وليس فيه من القرآن شيء، وأنّ أهل السنّة يرفضونه. ويقول أهله إنّ جبريل عليه السلام، نزل على فاطمة الزهراء بعد وفاة أبيها صلّى الله عليه وسلّم، ليعزّيها ويطيّب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، وما سيحلّ بأبنائها وذريّتها من

بعدها، وأخبرها كذلك بجميع الحوادث الخطيرة الآتية، وما سيواجه ذرّيّتها من المصائب والبلايا والانتصارات، كما دوّن فيه أسماء جميع الملوك والحكّام إلى يوم يبعثون، ويقال إنّ عليّاً رضي الله عنه هو من دوّن الكتاب بخطّه.

سهيل: أمن أجل أن نقول، ويقولون، يصير ترابنا يابساً، ومرعانا عابساً، ويموت الناس، ويُيتّم الوِلْد، وتُثكل النساء!

عمر: لا تسأل سؤال العارف يا سهيل! من أجل الولاية طبعاً، ولاية ليس لأهل الرقّة فيها ناقة، ولا جمل!

-18-

تحمّلت أكثر الأسر الرقيّة نحو مرابعها في الرصافة، فساق النـــاس حلالهم من غنم، ونوق، وخيل، وحطّوا هناك، عند أطراف البادیـــة، حيث تقابلهم المدينة الرخاميّة المهيبة، بأعمدتها الرومانيّة، وكاتدرائيّتها، وديرها، والتي ما يزال صخب مجالس بني أميّة يتردّد بين حجارتها.

كان الله سبحانه قد أغاث البادية هذا العام حتّى أرواها، وغذاها حتّى أشبعها، فزكا نباتها، وامتلأت بالزلال غدرانها، وطابت مراعيها.

تنتظر خود هذا الوقت من السنة على بساط الجمر، فهو الزمـــان الذي كان يصفو لها فيه قلب عمر منذ عهد الطفولة، فيطلعان معاً إلى المرعى، أو يجوبان التلاع يتسابقان على جواديهمـــا، أو يســـبحان في الغدران بعيداً عن العيون والآذان.

تحبّ خود أن تتحرّر مع البدو من تقاليد المدنيّـــة، فتتبسّـــط في هيئتها، وتزهد في رغباتها، إذ تكتفي بعطاء البداوة من عافية وإشراق، وصفاء الروح والوجه، وتمنح نفسها للأرض والسماء، وتشعر بـــذاتها أقرب إلى خلق الله الأوّل. تذهب مع الرعاة باكراً إلى حيـــث الحَلْـــب والصرّ[1]، تفطر على لباء الغنم في أوّل درّته، وتشرب حليب النـــوق، وتنطلق مع الفرسان تأخذ عنهم فنونهم في الركوب، ومعـــارفهم عـــن الخيل، وطبعها، وسلالاتها، حتّى إنّها أيّام نشأتها الأولى أمعنت في هوى

1 شدُّ ضرع الناقة بالصرار، كي لا يرضعها ولدها.

الخيل إلى أن صار لها ضلالة، وضع له أهلها حدّاً. لكنّ أحداث هـذا الربيع جاءت مكمّلة لحوادث الشتاء والخريف قبله، واضعة حدّاً لأيّـام خود مع عمر، الذي التحق بهم إلى الرصافة ليوم واحد فحسـب، أدلى فيها دلوه، وقطع رشاءه[1]، ومضى.

جلست خود ليلتها تحت قبّة السماء، تستعيد ذكـرى لقائهمـا الأخير: لم تبكِ بين يدي عمر بمثل هذه الحرقة من قبل، كانت تبكـي بكاء مودّع، وكان يقف أمامها وقفة من عقد العزم على الفراق الذي لن يثنيه عنه حيّ يموت أو ميت يحيا. وكان ذلك الربيع آخر عهدهما في خلوة وراء البيوت، قبل الزوال الذي لم يعد معه الناس بعد من المرعى، وحيث أغضى من أغضى من الذين يعرفون بأمرهما، وقد بدا لها عمـر آنئذ على أحسن ما يكون من طلعة، فزاد ذلك لوعتها لوعة، فقالـت مستشعرة النهاية الوشيكة لحكايتهما:

- أراك تقبس من شرر القسوة يا عمر، فهل ستصير نارٌ بيني وبينك؟!

كان عمر في أشدّ حالاته ألماً وحرجاً، ولو استطاع أن يمـوت في تلك اللّحظة لمات، لكنّ إرادته في أن يتحلّل من عهوده الماضية كانت أقوى، فقال مخفّفاً من حدّة الموقف:

- سيظلّ بيني وبينك الودّ يا ابنة عمّي، ولكنّ حالنا لا تخفـى علـى الغريب، فكيف هي عليك؟! إنّ ما ألمّ بنا من كرب، جعل قلبـي شوكاً لا ورق فيه، وقد آليت على نفسي إلاّ أن أكون مع قـومي فيما ابتلينا به، حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. الموت يتربّص بنا في كلّ مكان، وأوار الحرب بدأ يشبّ، وليس هذا وقت الهـوى يا خود!

---

1 حبله.

- إنّما تعلّلني بأضاليل يا عمر، فلم يكن للهوى وقت دون غيره على مرّ الزمان، وقد عاشت العرب قبلنا ذي قار، وبدر، وحنين، وصفّين، و لم يقل الرجل منهم لحبيبته: سأكفّ عن حبّك الآن، وأعود إليه بعد القتال! وأنا أعرف أنّ صدّك عنّي ملال لا دلال، وأعلم أنّ ما يجده الرجل عند الثيّب[1]، لا يجده عند البكر، لكنّي سأقول لك قولة أخيرة يا ابن عمّي، لا لأكسب القدح الأخير في الكلام، بل لتتذكّرها ساعة الذكر: مازلتَ بحاجة إلى كثير من النيران لتنضج يا عمر!

1 الثيّب: المرأة المتزوّجة.

-19-

جافى الكرى خود في اللّيالي التالية، فخرجت في إحداها خارج الخباء، والتحقت بالنار التي أوقدتها الخادمات اللّواتي تحلّقن حولها، يشوين بعض جذور الشوك، ويقلّبنه، ويتناولنه. وبعد قليل أقبل رجل كان قد طرق منذ أيّام مضارب بني الأشجع مع رهط له، بينهم أسرته، فأنزله عاصم بينهم، وأكرم رفادتهم، كعادته مع عابري السبيل. قال لها الرجل:

- آنست نارك، فأتيت.
- مرحباً بك يا عمّ، اجلس.

نظرت خود في وجه الرجل، فوجدته أضوا من القمر، كهل في الخمسين من عمره، وقد بدأ أَسْوده يبيضّ، في حلّة بسيطة، نظيفة، وقد فارقته أمارات السفر. جلس الرجل أمامها، ومدّ يده إليها بصرّة، فتحتها، وإذ به سير من جلد فيه عقيقة على هيئة قلادة:

- ضعيها في عنقك، ستحمل لك البركة، إنّها من بيت المقدس.
- أقادم من هناك؟
- أجل.
- وكيف هي بلادهم؟!
- أرض تمشين فيها بلا هادٍ.
- وإلى أين المسير؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إلى العراق.
- رأيتكِ في الفجر تضربين الأرض بعصاك، أتقتصّين أثراً؟!

فتر ثغر خود عن ابتسامة:

- بل أجسّ كمأة.
- وكيف تفعلين؟
- أميز رائحة الأرض التي أرعدت فيها السماء وأَوْدَقت، فأذهب إليها، فإذا ما رأيتها تقبّبت وتشقّق أديمها، أعرف أنّها حبلى. لقد جاوز جمعي قرطلاً مذ حللنا الرصافة، إذ أتسابق وبنات أعمامي، فالتي تجمع الجمع الأكبر تفوز بشاة.

ضحك الغريب، وبعد صمت قال:

- أرى عينكِ عبرى! لعلّك فارقت مفارَقاً؟

سكنت خود، وبقي صوت نفَسها الحارّ يقطع سكون اللّيل. راح الرجل يحدّق في سماء الرصافة المضاءة بنجوم تكاد لقربها تستقرّ بين الأصابع، ثمّ قال:

- ما اسمه؟
- عمر.

فكّر الرجل:

- تراب بنار بتراب.
- وأنتِ؟
- خود.
- تراب بهواء بتراب. أرى ألاّ تنتظريه. قالها بحزم أرهب به خوداً، وقضى على بقيّة ما أكنّت من أمل: ليس بينكما فراش.
- عرفنا العلّة، ونريد الدواء.
- الصبر.

- لا قِبَل لي به.
- فالنأي.
- ابن عمّي، وفي بيتي.
- عليك بالغريب البعيد، هو الذي سيستدلّ على مكمن روحك.
- رجال الرقّة وحدهم يعرفون مكان الروح من الجسد، فإذا ما أحبّ أحدهم امرأة، قال لها: أنتِ هنا، ويضع حنجرته بين سبابته وإبهامه، مشيراً إلى مكمن روحه، التي هي ومن يحبّ بمقام واحد، وكنت أحبّ أن أسمعها من عمر.
- ليس السرور فيما نحبّ، فما نحبّه محدود بما نعرفه، لكنّ هناك سروراً أكبر كامن في ما لا نعرفه، وعلينا أن ننال حظّنا في معرفته.

فكّرت خود:

- وماذا ترى أيضاً؟
- أرى خراباً يلمّ بالدار والديّار.
- وكيف يعرف الغريب، ولا يعرف أهل المكان؟!
- لأنّكم تنظرون في الأرض، ونحن ننظر في السماء.

-20-

كان قيظ الرقّة قد كوى أجساد أهلها، كعادته في مثل هذا الموسم من كلّ عام، فلا يجد الناس لردّه سبيلاً سوى المدارأة بأقبية بيوتهم، التي عادة ما يطلون فخّارها بالكلس الأبيض، يقضون فيها وقت الظهيرة الذي يذيب حرُّه الحديد، وغالباً ما يتحمّل الأهالي إلى شاطئ النهر، يبتردون بمائه، يغتسلون، ويسبحون، ويتناولون ما أنعم الله به عليهم من طيّبات، فتراهم وقد وضعوا فاكهتهم في أوعية مثقّبة من الفخّار، وأودعوها الشاطئ لتتناولها موجات الفرات الباردة، فتبرّدها، أو تراهم وقد نصبوا جواسق صغيرة من الزلّ[1] جوار الشاطئ، ليستلقوا تحتها، مسترطبين بالماء الذي يصل مع نسيم اللّيل أرجلَهم وهم نيام، يرجون شمس نهارهم التالي أن تترفّق بهم، فتتأخّر قليلاً.

في نهار من مثل تلك النهارات الصيفيّة القائظة، عزمت النساء على الذهاب إلى الفرات للسباحة عند (حويجة مارية)، حيث تمتدّ أراضي بني أشجع، وحيث لمالك وأخيه عاصم خليج صغير، لا تطؤه أقدام الغرباء، وقد اعتادت خود، وريّا، وبنات أعمامهما الذهاب هناك، كلّما سنحت الفرصة، ليتمتّعن بطقوس الصيف من اغتسال، وسباحة، وشواء، ولهو.

---

1 اسم يُطلق على نبات البرديّ، وهو نبات مائيّ من الفصيلة السعديّة، تسمو ساقه الهوائيّة إلى نحو متر، أو أكثر، وينمو بكثرة في منطقة المستنقعات، وتصنع منه البيوت الصيفيّة.

كانت ريّا قد دعت لبانة وابنها لمرافقتهم في هذه الرحلة، فأصرّت الأخيرة على أن تحضّر غداء الصبايا، فتأتي به معها. لم تبد خود اعتراضاً على دعوة لبانة البتّة، بل رحّبت بذلك، متمكّنة ببراعة من إخفاء غيظها الذي أيقنت أنّه، حتّى لو بهتت أسبابه، سيكون أبديّاً.

في (حويجة مارية) كانت زرقة الفرات وصفاؤه، يغريان الأجساد بالارتماء في أحضانه، فالوصولِ إلى الضفّة الأخرى، حيث الخضرة اليانعة تلتقي بصفحة سماء نقيّة تضيؤها شمس أشبه ما تكون بمسكوكة ذهبيّة عزمت على ألاّ تفارق مكانها أبداً.

بدأت الصبايا يتخفّفن من ثيابهنّ شيئاً فشيئاً، وراحت وسوسة الخلاخل والأساور تنافس رنين ضحكاتهنّ التي تتردّد مع موجات ترتمي كلّ حين على الحصى، فيطقطق الأخير نشوة. وهكذا نزلن الماء، بما بقي عليهنّ من سراويل وقمصان قطنيّة، تبدي أكثر ممّا تخفي.

اتخذت خود لها مساراً منفرداً في الماء، وراحت تعوم مستقبلة وجه حارثة في الأفق أمامها، لكنّ صورته المحبّبة لم تخلّصها من غمامة الكآبة التي جثمت على صدرها. كانت تفكّر في حال أهلها وديارها، وكيف سيحول عليهم الحَوْل! وهل سيكونون في مثل هذا الوقت من العام القادم آمنين من غوائل الدهر، ثابتين في بيوتهم ووطنهم!

ضاق نَفَس خود من هذا الخاطر الثقيل الذي أعقبته في مخيّلتها صور للجثث التي رآها أهل الرقّة طافية في الفرات جنوباً. لقد تحدّث الناس عن صور بشعة لأجساد وأشلاء لأطفال ونساء، ورجال، من الجند وغير الجند، من الأهالي، وقد وصلت رائحة فسادها خياشيم خود، فما كادت تصل الشاطئ حتّى أفرغت ما في أحشائها قيئاً، وقضت سحابة يومها واجمة، مقبوضة النفس.

أمّا ريّا، فقد آثرت مرافقة ضيفتها لبانة، التي لم تكن تعرف العوم، ففضّلت البقاء على الشاطئ، مكتفية بالماء الوارد من الموجات الصغيرة، تسترطب به، وترقب قيساً الذي ملأته البهجة، وهو يلعب بالماء مع أقرانه من الأطفال، وبخاصّة أبناء ريّا الذين عقد معهم صداقة متينة.

كانت الخادمات قد شرعن بتجهيز الجلسة تحت الجوسق الكبير، وقد باشرن إعداد الطعام للغداء، فيما راحت أخريات يحرسن الأطفال، ويلاعبنهم بالماء.

لم تلتحق (ريحانة) بركب المتحمّلين إلى الماء إلاّ ظهراً. كانت قد اغتنمت رغبة المتنزّهات بأكل السمك، فخطفت رجلها منذ الصباح الباكر نحو الشاطئ الغربيّ، قاصدة حامداً الصيّاد. كان حامد قد عاد بصيده باكراً، وجلس أمام كوخه عند الشاطئ، مستظلّاً بمظلّة من السعف، يرمّم بمسلّة ما اتّسع من ثقوب شبكته. بادرته ريحانة بمحيّاها الطلق:

- ما أخبار البحر اليوم يا صيّاد؟
- خيره وفير يا ريحانة، لكن لا بيع ولا شراء.
- والله يا حامد، شقّ عليّ ألاّ أصادف في الطريق إليك بسطات الصيّادين التي اعتاد الشاطئ الغربيّ هرجها ومرجها!
- بدأت الأحوال تضيق على الناس، ولا يبدو بَلَجُ الصبح قريباً. سأعطيك سمكاً (جرِّيّاً) لم يَجُد الفرات بمثله منذ زمن.

وكاد حامد أن يقوم، لولا أنّ ريحانة ثنته:

- على رسلك، لستُ في عجلة من أمري، اطمئن، سآخذ كلّ صيدك اليوم، عندنا ضيوف، ولكن اجلس معي قليلاً، فقد أوحشني حديثك يا حامد.

بُهت الرجل من عبارة ريحانة الأخيرة، واضطربت المسلّة بين يديه، فألقى شباكه جانباً، واحتضن ركبتيه بذراعيه، وجلس يحدّق في ريحانة.

-21-

لم تتجاوز ريحانة السابعة عشرة من عمرها، وطوال هذا الوقت لم تعِ لها أهلاً سوى دار إياد السلميّ، إذ جيء بها ابنة سبع من بلاد البربر إلى العراق، فاجتمع لها مع جودة العرق، آداب أهل العراق وفنونهم، ووصلت الرقّة ابنة عشر، وعاشت في دار السلميّ مطبوعة على الطاعة، حانية على الكبير قبل الصغير، نشيطة للخدمة مثل شعلة متوقّدة، تضيء ما حولها، ببشرة ضاربة إلى قتامة، وقوام معتدل، لا هو بالممتلئ، ولا هو بالضئيل، ناعمة الجلد، صقيلته، عيناها بنيّتان صغيرتان، ذاتا حلاوة، لكنّ أحلى ما فيها مبسمها العريض الذي يفترّ عن صفّ أسنان مثل لؤلؤ منضود.

كان حامد يأنس إلى طلاقة محيّا ريحانة، وحسن استقبالها له كلّما مرّ بحيّهم، أو أحضر السمك، الذي يخصّها بأجوده، إلى دارهم، وقد قشّره، ونظّفه، وغسله. وكانت ريحانة تحنو عليه مثل أمّ، فيرتاح عندها من مشواره الطويل الذي يبدأ منذ الصباح الباكر، ولا ينتهي إلاّ وقد باع وفير صيده، فكانت تخصّه بشيء ممّا قد أعدّت مع سيّدها من طعام أو شراب، يجلسان طويلاً عند عتبة الدار، أو في حديقتها الخلفيّة، يراقبها وهي تعدّ الطعام، أو ترتق الثياب، أو تقشّ أوراق الأشجار والحشف البالي من على الأرض، وفي كثير من الأحيان، كان يقوم عنها بذلك، فلا يحلّ الضحى، إلاّ وقد أفرغ كلّ منهما للآخر ما في جعبته

من أحاديث وهواجس، ليفطنا بعد حين إلى أنّهما باحا بأسرارهما من غير حيطة أو حذر!

كان حامد يُعجِب ريحانة كثيراً، ربّما لأنّها تشعر بأنّه يشبهها في وحدته وغربته، فلا أحد أيضاً يعلم من أين أتى، يقول إنّ بلاده بعيدة، وإنّ لا أهل له، بل إنّهم قضوا جميعاً في عاصفة بدويّة عند انتقالهم من الشام إلى العراق.

كانت الفتاة مشغوفة بعضلات ذراعيه القويّة والنافرة، التي ما أن تراها حتّى تعتريها الرغبة المجنونة في أن تتلمّس العروق الخضراء التي تكاد تنفجر تحت جلده القمحيّ المحروق، كلّما مدّ الصيّاد الشابّ جسده أو ثناه. وطالما شعرت أنّه ظلّها وملاذها، وأنّها يمكن أن تقول له أيّ شيء، وكلّ شيء، وأن تسمع منه مثل ذلك، وعندها يخطر في بالها أنّ ذلك هو الحبّ ليس إلاّ، على الرغم من أنّها عرفت من تلك المشاعر، في سابق عهدها، الكثير. فقد أحبّت سيّدها، وأولاد سيّدها جميعاً، وأحبّت الخبّاز، والعطّار، وتاجر الورق الذي تتعامل معه سيّدها، والسقّاء، والخمّار، وغيرهم كثر، ممّن كانت تصادف في أسواق الرقّة، أو في جنبات دير زكّا، أولئك الذين كان لها معهم ما يمكن أو لايمكن أن تُحْدِث به ذِكْراً. لكنّها مذ عرفت الصيّاد، لم يعد لجسدها الوحيد شريك وقت الرقاد سوى طيفه الذي تمتلكه في منامها من غير حسيب أو رقيب، فتحمله ويحملها إلى أبعد حدود الخيال.

مَثل ريحانة في هذا الوقت من الزمان، مَثلُ غيرها من أهل الرقّة، تتنازعها مشاعر جديدة، تراوح بين الخوف من البَدَد الذي تحمله الفتنة، وبين الغبطة بمظاهر التغيّر التي انتابت الناس جميعاً، و لم تعد تخفى على صاحب بصر أو بصيرة، إذ لم تعد الأواصر بينهم كما كانت، ذلك أنّ الخوف من المجهول ساوى بين قويّهم وضعيفهم، وبين غنيّهم

وفقيرهم، وحرّرهم من هواجس صغرى كانت تتحكّم بحيواتهم، فلم يعد العبد يخشى، كما كان، سيّده، وكذلك الخادم والمخدوم، والبائع والشاري، ذلك كلّه أفضى إلى فوضى لم يعدمها حتّى قصر الولاية ذاته، فراحت المكائد تحاك بثقة، وبدأت ريح الشقاق تهبّ على بيوت الولاء بين أهل الإدارة والحكم، حتّى وصلت صفوف العسكر، ممّا فتّ في عضد الدولة، فكثرت الإشاعات والأخبار حول استقدام آلة ضخمة من العتاد والجند، من أمصار الإسلام القريبة، واستقرارها في المحيط البعيد للرقّة، ممّا يشير إلى أنّ بطش السلطة سيكون شديداً، ولن يفرّق بين الصغير والكبير، والرضيع في السرير.

* * *

في هذا الأوان الذي يعيش الخلق فيه على شفا جرفٍ هارٍ، أيقنت ريحانة أنّ كلّ ما كان يشدّها إلى هذا المكان وأهله ليس إلاّ وهماً، فلا ملك لها هنا، ولا إرث، ولا حتّى قبوراً لأسلاف، بل إنّها لم تحبّ هذا المكان إلاّ لأنّها لم تعش في سواه، لكنّها عرفت أماكن أخرى، بل تاقت إلى رؤيتها، ممّا سمعت من حكايات التجّار، والصيادين، والحجّاج، والعابرين الذين التقتهم. وعلى الرغم من أنّ ريحانة أحبّت لبانة، كما لم تحبّ خادمة سيّدتها، فقد قرّرت أن تتوقّف عن الشعور تجاهها بذلك الولاء الذي يسمّيه الناس الإخلاص، وأن ترحل ليكون لها دار، وأسرة، وبنون وبنات، وذاك سيكون مع حامد الذي يمكن أن تبقى معه بقيّة عمرها، وأن تذهب معه إلى أيّ مكان، فهو أيضاً لا يربطه بالرقّة وأهلها سوى هذا الماء وذاك السمك، والماء والسمك موجودان في رياح الدنيا كلّها، والرحلة إليهما لم تعد تمتلك احتمالات الفناء بقدر ما يمتلكها البقاء هنا، حيث شرع الكثيرون بالرحيل، بحثاً عن الأمان.

لم تكن خواطر حامد تصل ذلك المدى من التفكير بالرحيل، ولم يكن يرهق ذهنه بالأسئلة حول القادم، مثلما كانت تفعل ريحانة، وإن كان خوفه يتفاقم كلّما سمع أحاديث القتل والتنكيل الذي يدور بين جند الوالي والخارجين على الدولة، هناك في المحيط البعيد في (عين غزال) و(تلّ الرماد)، وغيرهما من الأماكن الحوشيّة[1] التي يختبئ فيها مسلّحون لم يعرف أحد بعد، كنه أهوائهم، أو أسماء قادتهم.

كان حامد يفكّر فقط بامتلاك هذه الجنيّة، التي طالما رآها أقرب إلى عالم السادة منها إلى عالم الخدمة، وأنْ ليس له اللّحظة، وهو يشهد الاطمئنان الذي عاش فيه عمراً، ينسحب من الرقّة، مثل حلم ليل كاذب باغته الصباح، سوى أن يدفن جسده المشتاق إلى السكن في هذا الجسد الفائر، الذي يَعِدُ مجرّد النظر إليه في هذه الخلوة، بالكثير من الهناء. وتلبية لمثل تلك الرغبات التي لا تحتاج إلى توطئة، أو تسويغ، احتدم الجسدان في كوخ الصيّاد، يمارسان بما أوتيا من شهوة فنون الدفاع عن الحياة، ضدّ هذا الموت المحيق كلّه.

---

1 البعيدة.

-22-

جلست لبانة على الشاطئ، وراحت تضرب صفحة الماء بالحصى الذي تلتقطه من حولها، فتحدث دوائر صغيرة، تتّسع كلّما اشتدّت رميتها. في حين رمت ريّا جسدها على الماء، واستلقت على ظهرها، وكأنّها في فراش وثير، ترقب السماء، وتبتعد بهدوء نحو الضفّة الأخرى القريبة، تفتح عينيها وتغلقهما على صورة سعد، الذي تشعر به يرقبها في مكان ما من هذا الشاطئ المديد، ثمّ تعود في رحلة مماثلة، إلى حيث تجلس لبانة التي كانت تراقبها بغبطة، فقالت لها:

- طوبى لك يا ريّا، ما أشهى سباحتك، وكأنّك ولدتِ سمكة، بل حوريّة ماء!
- تعالي جرّبي، ستسعدين كثيراً يا لبانة.
- أجهل السباحة!
- أعلّمك، تعالي، حاولي.
- كانت رغبة شديدة قد تملّكت لبانة لتفعل مثلما فعلت ريّا، فقد شعرت بها طليقة، وقادرة، لا يشدّها إلى عالم البشر وثاق.

في المرّات القليلة التي حاولت فيها لبانة السباحة أيّام صغرها، فعلت ذلك في السواقي الصغيرة، التي تنشقّ عن الفرات لتروي أرض دير زكّا. كانت كلّما حاولت أن تطفو على الماء، تجد نفسها تغرق، فتقوم وتقف على قدميها، وبعد محاولات عدّة تيأس، وتُعرض

عن ذلك. لكنّ عالماً جديداً ينبثق أمام عينيها، وهي تشاهد الأشجعيّات يخترقن الماء بأجسادهنّ اللّدنة التي تشيع البهجة في البرّ والبحر.

حملت ريّا لبانة في الماء، وقالت لها: أريدك الآن أن تثقي بي، وأن تفعلي مثلما أقول. استلقي على صفحة الماء، وكأنّك تستلقين على أديم، واسترخي، استرخي تماماً، ارمي حمولك كلّها على الماء، ولا تخشي شيئاً، فيداي تحتك تماماً، هيّا...

راحت لبانة تنفّذ تعاليم ريّا، إذ قرّرت أن تثق بها، وراحت تتخفّف شيئاً فشيئاً من أحمالها، وتمنح ذاتها للماء تحتها، حتّى بدأت تتوازن وتطفو:

- أحسنتِ، ابقي هكذا، ارفعي رأسك قليلاً، ارفعي بطنك أيضاً، اغمري ساقيك أكثر، الآن حرّكي قدميك بهدوء كأنّك تصافحين الماء بمشطيهما مصافحة، واجلبي براحتيك الماء إلى جانبيك، نعم، حرّكي ذراعيك مثلما ترقص محبوبة، أو بهجة...

تابعت لبانة حركاتها بحماس، ومرّة تلو أخرى، تمكّنت من أن تطفو على وجه الماء، ثمّ راحت تعوم وتعوم، وقد ملأها سرور لا عهد لها به، وأسفت كيف أمضت سابقات أيّامها من غير أن تتمتّع بهذه الأعطية الربّانيّة! كانت ممتنّة جدّاً لريّا، التي ساقت هذا العلم إليها. راحت المرأتان تسبحان معاً مرّات ومرّات، وشيئاً فشيئاً تقدّمت بها ريّا إلى عرض النهر:

- اتركي الآن نفسك للفرات يا لبانة، دعيه يستلم عنك ما يثقل طينك، وستجدين نفسك خفيفة ونقيّة مثل روح فرّت من جسدها...

كان كلام ريّا يصل أذن لبانة مثل همهمات مبهمة، فقد كانت منشغلة بانطلاقتها، وصور كثيرة تتبادر إلى خاطرها: صورة عمر، وصورة زوجها، وصورة كتبها مكوّمة مثل تلّ، فذبّتها كلّها، واحتفظت بصورة سليمان يحملها على عرشه، و لم تفطن لذاتها إلاّ وهي في عرض الماء، ففزعت، وكادت أن تفقد توازنها، لولا أنّ ريّا وضعت يديها تحت ورك صاحبتها، ورفعته قليلاً، وتابعت:

- قلت لك استرخي، فأوّل الماء وعرضه سيّان!
- إذن، دعينا نبق قريبتين من الشاطئ.
- لا، لن تدركي عند الشاطئ كنه المتعة يا لبانة، اسبحي في العمق الذي يمكنك أن تغرقي فيه!

ظلّت كلمات ريّا الأخيرة تتردّد في خلد لبانة، ومعها كان هوى سليمان يشتدّ على نفسها، فهو العمق الوحيد الذي تهوى أن تلقي نفسها فيه، والذي بإمكانه أن يغرقها. كانت طوال الوقت تراود طيفه الذي ما برح يقترب من عينيها ويبتعد، إلى أن أمسى المساء، فانسحب الأطفال الذين هدّهم التعب، ليناموا تحت الجوسق، ملتحفين بعباءات أمّهاتهم، يدرؤون بها برودة هواء هذه الليلة الصيفيّة، التي لم ينبِئ نهارها عن مثل هذا الطقس البتّة، مستأنسين برجع أصوات اللاّئي افترشن الحصى، ورحن، وفي كلّ منهنّ جمرتها، يصغين إلى عزف خود، التي شاب صوتها في تلك الهدأة نشيج أشبه بنشيج مودّع، عودها في حضنها، وعيناها تنظران ما بدا من عمران الرقّة وبساتينها، فطفقت تجود بلحن للموصليّ في شعر مضّاض الجرهميّ:

وقائلةٍ والسَّكبُ منها مبادرُ
وقد قُرِّحتْ بالدمعِ منها المحاجرُ

كأن لم يكن بين الحجــون[1] إلى الصــفا
أنــيسٌ، و لم يســمر بمكّــة ســامرُ
فقلت لهــا، والقلــبُ منّــي كأنّمــا
تخلّبــه بــين الجنــاحين طــائرُ
بلــى نحــن كنّــا أهلــها، فأزالنــا
صروفُ اللّيــالي، والجــدودُ العــواثرُ[2]

1 الحجون والصفا: موقعان في مكّة المكرّمة.
2 الحظوظ السيّئة.

-23-

ذهب زهوّ القمر، ورقدت النساء جميعاً، إلاّ ريّا، فقد بقيت تساهر العين التي ترقبها عن بعد، إذ لم يجانب إحساسها الصواب، فقد كان سعد وبعض صحبه هناك، على الضفّة الأخرى من الفرات، منذ العصر، بعد أن انحدروا من التلال الغربيّة، التي غابوا فيها يومين، أنجزوا خلالهما مهمّتهم في ملاحقة مجموعة من الخارجين، بعد مناوشات قاسية، أصيب خلالها سعد في ذراعه بطعنة خنجر، لكنّه آلى ألاّ يعود إلاّ وقد نكّل بأفراد الجماعة، الذين بلغوا زهاء خمسين رجل ملثّم، تنكيلاً شديداً، فقتل وجنده عشرين نفراً، وأسروا عشرة، وتمكّن الباقون من الفرار، بعد أن اعتبروا بما حصل لصحبهم.

كان الملثّمون يرفعون المصاحف على الأسنّة والسيوف، وكانوا يصيحون بعزّة الله وجلاله، ونصرة الدين الذي تعود إليهم ولاية أمره، ممّا حزّ في نفس بعض من جند سعد، من الذين مازال هواهم تائه بين الولاء لقيادتهم، وبين انتصارهم لدعوة بعض أهل الجزيرة التي تكفّر الخليفة، وواليه، وقادته، ومن اتبع ملّتهم إلى يوم الدين، حتّى يعودوا في حضيرة آل البيت، فيدَعوا البحث عن مصحف فاطمة الذي يطلبونه عند أناس هذا المكان، إذ هو مخبّأ، كما يقال، بين ظهرانيهم، منذ أيّام صفّين، وأنّ من يحتفظ به، سيظهره، ليدعو إليه من جديد، فيوري زناد الفتنة بعد رقاد، بل سيكون أوارها أشدّ، حينما يظهر بين أيدي دعاتها

أثر من آثار ابنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وزوج وليّه الحميم عليّ رضي الله عنه، وأمّ سبطيه، سيّدي شباب الجنّة.

لمّا استشعر سعد وهناً من ناحية جنده، وأكثرهم نزاريّون، صاقب هواهم هوى أهل المكان، صاح بهم بقوله تعالى: ("يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء". أيّها الجند، لقد قرّبتم القرابة، وباعدتم الدين، فظهر منكم اتّباعكم السفهاء، الذين آثرتم القيام دونهم، حتّى انتهكوا حرم الإسلام. فلا تذودوا عن الخارجين عن أحسن السنن، سنّة محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا تكونوا مطيّة لمحدثات الأمور، فإنّها أشرّها، وإنّي إذ أعجب، فأعجب من جدّ هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن الحقّ! فتذكّروا أنّ أقبح الضلالة، ضلالة بعد هدى، وأنّ أَشْرفَ الموت الشهادة، وأنّني حرام عليّ الطعام والشراب، حتّى أسوّي هذا المكان بالأرض، إن لم ينته أهله عن ذلك الحدث الذي لم يُسبقوا إليه).

ظلّ سعد ورفاقه الخلصاء يقاتلون حتّى تمكّنوا من القبض على بعض أفراد الجماعة، فوجدوا حاديهم[1] شرّ حادٍ، كان رجلاً من الغبراء الذين لا ينفكّون يصحون من سكرهم، حتّى يصوموا عن المعروف، ويفطروا على الفحشاء، وحين أدرك المتشكّكون من الجند أمر زعيم هذه الجماعة، أيقنوا أنّ الشأو شأو فتنة ومأثم، لا حقّ ومغنم، وفزعوا من أن يكونوا يداً للشرّ على الخير، فحادوا عن هواهم ذاك، وعادوا إلى صفوف سعد، يقاتلون قتالاً عنيفاً، حتّى انصرفوا وافرين.

* * *

1 قائدهم.

كان سعد ذا بأس شديد، لم يُعرف عنه رفق تجاه أحد في زمانه، وهو حتّى في ساعات تبسّطه مع أخصّ خاصّته، لم يكن يؤمن جانب يده أو لسانه، فالشرّ عنده ليس خصلة، بل سياج يسيّج به كيانه، يجلس بين الناس كالأسد في تامورته، وفي ساحة القتال تراه مثل وحش، ترك قلبه في الخيمة، وانطلق يفتك بفرائسه. لكنّ أعجب ما يثير العجب في شخصه، هو مذهبه المختلف مع النساء، فما عرفته امرأة إلاّ عشقته إلى الأبد، سواء أكانت أميرة أم حقيرة، بكراً أم ثيّباً، عزباء أم ربّة بعل، بل هناك من النساء من زهقت روحها حقّاً في هواه، بعد أن تقطّعت بها السبل إليه، لهجرٍ، أو لرحيلٍ من مصرٍ[1] إلى آخر في بلاد الإسلام، حيث دعاه داعي القتال.

ثمّة من يقول إنّ ولع النساء به يعود إلى افتتانهنّ بالقوّة بين جنبيه، وآخرون يعزون ذلك إلى شهامته منقطعة النظير، فهو يُقري الضيف، ويغيث الملهوف، ويكتم السرّ، ويجري على الفقراء، وينصر المظلوم على الظالم، ولو كان الأخير الخليفة ذاته.

فُتن سعد بريّا من النظرة الأولى، وذلك حينما دخل عليها حانوتها في واحدة من جولاته التفقّديّة المبكّرة لأسواق الرقّة، إذ وجدها مكبّة على شغلها، جادّةً في عمليّة الخلق بين آلتها ويديها. وكانت تلك المرّة الأولى التي يرى فيها امرأة لها مثل ذلك الألق جاهاً وجمالاً، تعمل بمثل تلك العزيمة، وذلك الشغف، من غير أن تلقي بالاً إلى شيء أو إلى أحد!

تابعها سعد ببصّاصيه، ومخبريه، فوقع في حبّها إذ عرف من حكايتها ما لم يعرفه أحد غيره.

---

1 بلد.

كان سعد ينفر من الضعف في النساء، مثلما ينفر منه في الرجال، وكان يهوى المرأة إلى أن تتكشّف له هشاشتها، التي غالباً ما تكمن في تعلّقها به، فتظهر في أشكال استجدائها إيّاه للبقاء معه، والبكاء لفراقه، وقلّة الصبر على بعده وانشغاله، وملاحقته في حركاته وسكناته، فيهجرها. وتَعْلَقُهُ النساء لأنّه يولي كلّ امرأة منهنّ الاهتمام ذاته الذي يوليه لفرسه، وسيفه، ودرعه، فحينما يختصّ بامرأة ما، يُغدق عليها بإخلاص ممّا تفتقده في نفسها وأيّامها، من أحسنه، وأوفره، حتّى يبلغ بها منتهى السعادة، ويسدّ في حياتها فجوة الحرمان، التي تجعلها حزينة أو وحيدة، ولعلّ سرّ سطوته على الرجال والنساء معاً، هو تلك المفارقة بين شغفه بالقوّة من جانب، وتوقه إلى إغداق العطف من جانب آخر. ولعلّ ما بهر سعداً يوم لقي ريّا، قوّتها، قوّة جسدها الذي لم يوهنه وطء رجل أو ذريّة، وقوّة روحها التي ما برحت رحى الحياة تطحنها كلّ يوم، فلا تكشف سوى عن لمعان جوهرها وصلابته.

ظلّ الرجل ينصب حولها شباكاً من هيبة وقوّة حيناً، ومن رأفة وتدليل حيناً آخر، حتّى نجحت حاجته، وبدأ قلبها يركن إلى ما افتقدته طويلاً، إنّها السطوة. فحبيبها وزوجها الأوّل حسن السعديّ، كان مولى لذويها، غير مؤزّر بجاه أو مال، وابن عمّها وزوجها الثاني حسن الأشجعيّ، كان من ألين الناس عريكة تجاهها، حتّى إنّها كانت تستطيع أن تقتلع قلبه من بين جوانحه، فتعصره مثل حبّة عنّاب، من غير أن ينبس سوى بالسمع والطاعة، وهي لم ولن تحبّه يوماً، حتّى تحبَّ الأرضُ الدمَ المسفوح، كما تقول، إذ كانت تريد رجلاً مثل سعد، يصرعها في الحبّ، كما يصرع غيرها في الحرب.

-24-

"حرز" هو الشخص الوحيد الذي أمكنه اعتراض حركة سعد، واقتحام هيبة القائد الذي تطاوعه البريّة كلّها في هذه الأنحاء. كان يترصّده في كلّ مرور، يسأله بين جدّ وهزل، وبين صحو وجنون عن مبتغاه، وعن سبب اهتمامه بالسوق، وتردّده على أهل الحانوت بالذّات، وعن عنايته المفرطة بهم. و لم يكن لسعد أن يقطع لسان الرجل، أو أن يدقّ عنقه، فـ "حرز" هذا نصف مجنون، أشعث، أغبر، رثّ الأطمار، زد على ذلك أنّه مقطوع اليمنى التي اعتاد أن يلفّها بخرق ملوّنة تزيد منظره بؤساً، وهو يديم القعود أمام حانوت ريّا منذ زمن طويل، وهي تقول دائماً: إنّها لا تتصوّر المكان بلا بركة حرز، لذا فقد موّلته ببضاعة صغيرة يفرشها على الأرض أمام الحانوت، فيها الحنّاء، والمساويك، ولبان البطم، وبعض الزيوت العطريّة الرخيصة، وأمشاط عظم، وخداريف للعب الأطفال، يبيع منها ما يتيسّر له، وتتكفّل ريّا بنقده ما يمكن أن يقوته لبقيّة يومه.

يعرف أهل الرقّة حرزاً مثلما يعرفون الفرات، أو السور، أو قصر الولاية، ولا يتورّع الصغار منهم عن مشاكسته كلّما مرّوا به، وهم يعلمون أنّ فيه هوى شيعيّاً، يبديه ولا يكتمه، فيصيح به الولد: حرز! أتشتم فاطمة وتأخذ ديناراً، فيردّ حرز: بل أشتم عائشة، وأكتفي بدرهم! وكان الكبار يحاورونه، ويسألونه عن مستجدّات السوق،

وأخبار التجارة والسياسة والعسكر، وكأنّه دليل المدينة، ويعطيه أهل الخير من إحسانهم، وقد يراه المرء أحياناً حاضر البديهة، فصيح اللّسان، وأحياناً أخرى، يبدو وكأنّه من خارج هذه العالم، فاقداً للعقل، ناطقاً بالتخاريف التي تجعل بعضهم يظنّه مباركاً، وقد كُشفت عنه الحجب التي أُسدلت على البشر.

كانت ريّا وصويحباتها، ومن يتردّدن عليها في الحانوت، يجدن حرزاً واحداً منهنّ، لا يتحرّصن منه أو يتحرّجن، فيسمع كلامهنّ، ويعرف أسرارهنّ، وقد يداعبنه بالقول، وتمنّيه إحداهنّ بالزواج منها، وهو يحمل إليهنّ أخبار السوق، وأحوال البلد، وربّما استعنّ به في سؤال عن حدث، أو أحد، أو عن شيء يمكن أن يجلبه لهنّ من هنا أو هناك.

حينما شعر حرز أنّ سعداً قد جاوز في تردّده على المكان الحدّ، استوقفه، وقد وضع أمام قدم القائد عصاه التي يهشّ بها على الأولاد، ففوجئ القائد واغتاظ، فقال له حرز:

- ما بال قائد الجيش لا يبارح المكان، أوِ يظنّ أنّنا نخفي أهل الفتنة بين بضاعتنا؟!
- صهٍ يا رجل!

وأبعد سعد العصا عن قدمه بمقدّم سيفه، ودلف الحانوت، فلم يجد أحداً. عاد إلى حرز متسائلاً:

- أين هم؟!
- من هم؟!
- أهل.. أهل..

واغتاظ سعد، وقد بلغ منه الحنق مبلغاً، فلم يتمّم عبارته التي أتمّها حرز عنه:

- أهل الكهف؟! إنّهم في رقدهم.
- وأنت ماذا تفعل إذن؟
- أنا كلبهم يا سيّدي، كلبهم الذي بسط ذراعيه بالوصيد[1]!

وراح يقهقه... فما كان من سعد إلاّ أن رفس بقدمه البضاعة أمام حرز ومضى قبل أن ينكّل به، وقد راح حرز في نوبة ضحك، يسخر فيها من القائد الذي طاح الهوى بلبّه، ويصيح:

- ما أنت إلاّ أنا أيّها القائد، ما أنت إلاّ أنا!

---

1 إشارة إلى قوله تعالى في سورة الكهف: "وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا" (18)

-25-

على الرغم من أنّ سعداً في مجلسه ذاك، لم يكن يتبيّن تفاصيل ريّا على الضفّة الأخرى، كان يشعر بأنسٍ شديد، وهو يرى شبحها وصويحباتها، يتحرّك، ويسكن، أو يلقي بنفسه في عرض الماء. بعد حينٍ استوى الرجال في مجلسهم حول النار، يستعدّون للانقضاض على لحم الغزال الذي غنموه مع ما غنموا في معركتهم بين التلال، وهو ينضج على منصب الحطب أمامهم، سأل أحدهم:

- هل نصف لك يومنا هذا يا سيّدي؟
- بل نُعرض عن الكلام عليه، وقد ذهب بشرّه، وندعو الله أن يثمر لنا خيره، وراح يتحسّس الجرح الذي في ذراعه، فترتسم على وجهه أمارات ألم شديد.
- إذن، ينشدنا سَلْمان من شعر النواسيّ، أو من شعر بني عذرة!

تناول سعد علبة من أدم، ملئت خمرة عانيّة، جيء له بها من العراق، صفقها[1] في صحن خشبيّ ضخم، وصبّ في الأقداح قائلاً:

- بل يحدّثنا (كعب) حديث الخمر والنساء!
- هات من أوانيها يا كعب!

صفن كعب، والقوم مشنّفون آذانَهم، ثمّ تنحنح، وقال:

---

1 نقلها من إناء إلى آخر.

- من النساء، يا سادة، من لا تُبلّغكَ الريَّ في وصلها، وكأنّك تشرب في (غُمَر[1])، فتظلّ صادياً[2]، تطلب المزيد، فإن وجدتَه للتوّ، انتشيتَ، وإن لم تجده، فكأنّك لم تنل منها شيئاً، وتلك تَرْكُها أَولى، لأنّها تشوقك ولا تُذيقك، فتنهك روحك وبدنك، بلا طائل!

ومنهنّ من تروي الرجل الواحد، مثل (القَعب)، وهو أكبر من الغَمر قليلاً، وتلك مكمن الطمأنينة، فهي لك وحدك، فإن وجدتها، اغتنمها، ولا تشرك بها أحداً.

ومنهنّ (قَدَحٌ)، تروي الاثنين والثلاثة، وتلك أسلى للنفس، وأزيد للمتعة، وقد كانت سريّات الجاهليّة يتخيّرن ثلاثة أو أربعة من السادة، يغشون المرأة الواحدة منهنّ، فتحبل من أحدهم، وتنسب الوليد للآخر.

- ألا بعداً لقوم الجاهليّة!

تابع كعب:

- ومنهنّ مثل (الحوأبة[3])، يغشاها القوم جميعاً، فتكفيهم جميعاً، وتلك باعد الله بيننا وبينها!

تعالت ضحكات القوم حتّى أرقصت شعلة النار المضرمة في وسطهم، فصاح أحدهم:

- هات الآن من صفاتها يا كعب!

حوّل كعب اتكاءته من اليمين إلى اليسار، فناوله جارُه وسادة جلديّة، ارتاح عليها، ثمّ قال:

---

1 قدح صغير.

2 عطشان.

3 إناء كبير.

- ثمّة من النساء المرأة الأُنُف، التي لم يعرفها أحد قبلك، تماماً مثل الكأس الأنف التي لم تُشرب من قبل، وتلك تجرّبها مرّة، فما أن تذهب حميّاها، حتّى يصير مثلها مثل غيرها، ما لم يغيّر الله أمراً كان مقدورا. وهناك المرأة المُزّة التي تلدغ قلبك، مثلما تلدغ المُزّة من الخمر لسانك. وهناك المصفوقة التي تتحوّل من إناء إلى إناء، مثلما تتحوّل المرأة من خليل إلى آخر. ومنهنّ الشَّموس التي تجمح بك، فإن أتيتها، فرّت من بين يديك، أو من تحتك، ونَزَت كما تنزو الشَّموس من الخمر عند المزج. ومنهنّ العُقار[1]، التي تعقر مالك أو عقلك. ومنهنّ السّبيئة[2] التي تبتاعها بمالك، والمُعرقة، وهي كريمة المنبت، طيّبة التربة، مثل المرأة طيّبة الأعراق والحسب. ومنهنّ المقتولة، التي غشيها الرجال حتّى قتلوها وطئاً، مثلما تقتل الخمر بالإفراط في مزجها، وتلك التي قال فيها ابن ثابت:

إنّ التي ناولتَني، فرددتُها
قُتِلتْ.. قُتلتَ، فهاتها لم تُقتلِ

ومنهنّ الميّتة التي طُبخت طبخاً كثيراً حتّى جفّ أكثرُها، كالتي أعجف الرجال جسدها بشهواتهم، فلم يبقوا منها، ولم يذروا. وكلّهنّ يخامرن عقلك وروحك، ولكن بدرجات، فمنهنّ التي ترشف منها، فلا تستطيبها، فتقطّب وجهك في وجهها، ومنهنّ من تجعلك في نشوة فحسب، وأخرى تسكرك حتّى يجوز عليك الحدّ، ومنهنّ من تطفح منها، فتفقد جَلَدَك، وثمّة من تهوي بك من رأسك، فتصير ملتخّاً، وسكران ما تبتّ، وتلك الأخيرة، إيّاها، إيّاها!

---

1 عقر الشيء: قضى عليه.

2 المأسورة في خوابيها، وتفكّ أسرها بشرائها.

-26-

كان لابدّ من اللّقاء، رجل بلا امرأة، وامرأة لا رجل، وفوق هذا وذاك، نار الغرام التي لقيت في قلبيهما حشفاً وغضاً في توق للاحتراق، لبانة التي ما أن سرت في نفسها حلاوة الرجل، حتّى غادرها، لتستوي أنوثتها على وهج الذُّكُرات، وسليمان الذي لم تملك النساء اللّواتي عرفهنّ عليه قلبه، ولا جسده، فاستبدل بهنّ السجّاد، وذلك مذ هجر فراش زوجته، حين آخى اللّحم اللّحم.

كان ما أدخل البهجة على قلب سليمان بعد طول وقت قضاه في دير زكّا، مذ أوبته من تبريز، أن يجد امرأة من لحمه ودمه، تمتلك مثل هذه الشهيّة للحياة، وتعرف من فنونها وأسرارها، ما لاتعرفه الأخريات، وها هي تضع ذلك كلّه بين يديه، فضلاً عن شبابها المتوقّد، وأنوثتها الفيّاضة التي تجرف دائماً إرادته ورغباته، وتتفوّق عليه في السكوت، مثلما تتفوّق عليه في الكلام.

لم تكن لبانة تتورّع عن أن تقول أو تفعل أيّ شيء يتعلّق بتفاصيل العالم من حولها، فتتركه دائماً يفكّر فيما تقول وتفعل، لكنّه يجد نفسه منتظراً منها قولاً آخر، لم تبح به، قولاً يتعلّق بقلبها، وبه معها، لكنّها لا تقوله، ولطالما أراد منها أن توافق هواه في حركتها وسكونها، ورواحها وغدوّها، لكنّ لبانة لا تطيع سوى هواها، فهي تأتي حينما يجزم أنّها لن تأتي، ولا تأتي حينما يكون على يقين بأنّها

آتية، وتنشغل عنه حينما تبرّحه الصبابة إليها، ثمّ تعود حينما يكون قد عوّد أيّامه بُعدَها، وذلك ما كان يضرب في جبروته، فيعاقبها بالصدّ حيناً، وبالغياب حيناً. ورغم مكاشفات الجسد التامّة بينهما، ظلّ يشعر بأنّها ليست في متناول يده، وأنّها قد تختفي بعد أيّة لحظة يقودها إليها هواها، إذ تكون معه في المساء، وتنسرب من بين يديه في الصباح، وكأنّها لم تكن في فراشه ساعة، وقد سلبته غلال جسده، كما تحبّ أن تقول دائماً، في حين يجد هو أنّها تسلبه غلال الروح! لذا كان يستبق أيّ فعل منها بأن يحيط نفسه بهالة من قسوة وضِنّة، يواجه بها عنفوان لبانة، التي تشعره كلّ لحظة بأنّها لا تحتاج شيئاً، ولا تحتاج أحداً، وأنّها تحمل في قلبها من ذكريات الهوى، ومن تجارب الغِوى، ومن معرفة بأحوال الرجال ودنياهم، ما يفوق أيّة خبرة يمكن أن يقدّمها لها، من حلو اللّقاء أو مرّ الفراق، فضلاً عن كونها الآن مطلب كثيرين من أعزّ رجال العرب، وأكرمهم أرومة، وأحسنهم طلعة، وأزيدهم شباباً!

ويبدو أنّ ذلك السياج من التكتّم وضنّة سليمان في المشاعر هما ما يجعلان لبانة تتمترس وراء صمتها معه، بل وراء كلام وأفعال بعيدة كلّ البعد عن حقيقة ما تكنّه وما تريده، وعن حقيقة الجوى الذي ما فتئ يكوي كلاًّ منهما وحده، لا لسبب، سوى الخشية من أن يصرم أحدهما خليله قبل الآخر.

* * *

لطالما عُرف عن سليمان تحفّظه في الكلام على أيّامه وأحلامه على حدّ سواء، وكان (وهّاب الصبّاغ) الشخص الوحيد الذي يركن سليمان إليه، ويُسرّ له بما تفيض به نفسه من شجون وهموم. و(وهّاب) هذا رجل أقرب ما يكون إلى أهل الله، عارف بكثير من الأسرار الإلهيّة، وقد ودّع الشباب منذ بضع سنوات، ولا زوجة له، ولا ولد،

نظيف الحلّة، نقيّ الخلّة، بطلعة بهيّة، وهيئة كهيئة أهل الصلاح. جاب الأرض من مشرقها إلى مغربها، يبحث في كتب الأوّلين، ويقتصّ آثارهم، إلى أن حطّ به الترحال في دير زكّا، يعيش عيش الكفاف، ويستشيره الناس في ما جريات أمورهم. وقد يقرأ على رأس المحموم، وعلى قرح المقروح أو الملدوغ، فيشفى من حينه. يزجي نهاراته في قراءة الرسائل والرقع، يحبّر حواشيها، ويفكّ طلاسمها، ويقضي لياليه في تلاوة القرآن. وكان سليمان يطيل المكوث عنده، يتحدّثان بلغات مختلفة، الغالب عليها الفارسيّة، فيتعاوران أمور الخلق، وأحوال دنياهم. وعلى الرغم من حبّ النساء وهّاباً، وزواجه بالكثيرات، إلاّ أنّ امرأة لم تستطع البقاء معه، وذلك لقوّة عجيبة يمتلكها، فهو يستطيع قراءة ما يدور في خلد المرأة التي تمكث بين ذراعيه، ويعرف أفكارها وأحلامها، فما تراه في منامها، يحكيه لها في الصباح، وهذا ما لم تستطع امرأة عليه صبراً، إذ يصعب عليها أن تجد ذاتها عارية الفكر، والخيال، والأماني، والأحلام! وكان سليمان دائماً يقول لصاحبه:

- آه يا وهّاب، لو أنّك دخلتَ روع لبانة، فعرفت لي ما يدور بخلدها، وكيف تراني، وإلام تخطّط أن ينتهي الأمر بي معها؟!

فيردّ (وهّاب):

- لا يكون ذلك حتّى تنام المرأة بين ذراعيّ يا سليمان!

فيغضب سليمان، ويتميّز غيظاً، حتّى يُهدِّئ (وهّاب) من روعه بإسداء النصح، ورواية أخبار السالفين من العشّاق والألاّف!

ولعلّ المصدر الآخر للعجب الذي تثيره شخصيّة (وهّاب) هو ضلوعه بأسرار الصباغة التي تزيده سحراً وغموضاً، وهذا هو الحبل الأمتن الذي يشدّ سليمان إليه، والذي يستقرّ عند الشغف باللّون، والخيط، والنسج، فالسجّاد. وعلى الرغم من ضلوع سليمان بسرّ

اللّون، فهو مذ عرف وهّاب ترك له مهمّة صباغة الخيط، وهو لا يستأمن أحداً إلاّه عليها.

يجمع وهّاب بنفسه النباتات التي يستخرج منها أصباغه، بحيث لا يَحدث تفاوت في قوّة اللّون في السجّادة الواحدة، وأصباغ وهّاب حينما تخفت مع مرور الزمن، فإنّها تضفي على القطعة سحراً خالصاً يشي بالأصالة والعتاقة.

يأتي بالأصفر من ورق العنب المبثوث في دور الرقّة وكرومها، وبالأحمر من سحق إناث حشرة القرمز، أو من نبتة الفوّة المعروفة بـ (عروق الصبّاغين)، والتي يزرعها خصّيصاً حول داره لهذه الغاية. أمّا اللّون البنيّ، فيستخرجه من قشر الجوز ولحاء السنديان، ويأتي بالأزرق من النيلة، في حين يحتدم الخلاف بينه وبين سليمان حول اللّون الأخضر، ففي حين يرفض وهّاب استعماله تكريماً لآل بيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يرى سليمان أنّ استعماله تكريم بحدّ ذاته للون آل البيت، وتذكير بهم في كلّ حين، وبركة فيما يصنعه من سجّاد، لذا فهو يخلطه بنفسه من الأزرق والأصفر.

-27-

على الرغم من مشاغله كلّها، صار سعد يتردّد على ريّا كلّ يوم، إن لم يلمحها في الصباح، فلابدّ من أن يفعل ذلك في المساء، لا يكلّمها ولا تكلّمه إلاّ إشارة، تفصح عن ودٍّ وسلام. وكان يحاول أن يُشعرها أنّه يبسط حمايته على المكان من أجلها وحدها. وضع له حرّاساً على مدخل السوق، يتابعونها إن شرّقت أو غرّبت، ويحملون عنها ما يجدونه بين يديها، ويؤمّنون لها الماء العذب للشرب، وغيره للشغل بدلاً من السقّاء، فباتت كأنّها ملكة ترافقها حاشيتها أنّى غدت أو راحت. وكثيراً ما كانت تُفاجأ في معملها بطبق شواء وقت الغداء، أو بدورق حليب بالقرفة عصراً، أو بطبق من الفاكهة الطازجة، أو اللّوزينج، وقد وُضِع أمامها أثناء شغلها، وكان ذلك كلّه يحدث من غير أن يُفصح أحد عن مصدر تلك الهدايا التي كانت تدهشها، وتفرحها. وعلى الرغم من أنّها كانت ترفضها بداية، بل وتردّها بغضب، تولّهت يوماً إثر يوم بهذه الرعاية غير المسبوقة، التي أولاها بها رجل، لعلّه الأقوى والأشجع بين رجال المسلمين في هذه البطاح قاطبة، والذي بدأ هواه يجري في نفسها مجرى الدم في العروق.

بدأ سعد يطلب لقاء ريّا، وكانت تتمنّع وهي راغبة، فيرسل الرسل، يحملون كتبه إليها، ولا يلقى منها سوى الصدّ، فأثاره أمرها، وضيّق الخناق عليها، حتّى بدأت تتغيّب عن السوق، وتلزم دارها، بين

الفينة والأخرى، فرحة، وخائفة، وساهية الطرف، تفكّر في مآل ما وضعت فيه حالها، إذ بسطت بينها وبين الرجل حبل الهوى، وهو لن يفلته حتّى ينالها، وكانت تعذل نفسها على ما آل إليه أمرها، فما كان لها وما له؟ بل ما له ومالها؟ وهو يرى حولها أطفالاً يثقلون كاهلها، ويشهد بطنها تكبر يوماً إثر يوم، تحمل نفساً في نفسها، ومع ذلك يصرّ على لقائها، إنّها لتعجب من أمره كلّ العجب! لكنّها لا تريد أن تصرم ودّه، فتفقد فرحة الوجدان التي تغمرها، كلّما لاح لها من بعيد، أو بدا من قريب، فيسقط قلبها شغفاً بين قدميها، ولا تستطيع مداراة البهجة التي تنتشر في عروقها، فتبتسم، كما لم تفعل في حياتها، ويحمرّ لونها، وتزيد الهامة الجميلة التي تحملها بين كتفيها جمالاً. أمّا سعد، فقد عزم على أن تكون المرأة له دون نساء العالمين، كان مرآها يفتح في نفسه مكامن للشهوة، لم يكن يعلم بوجودها من قبل، يأسره جمالها الغريب حدّ النفور، وتملكه بقسوة ملامحها، وتمنّعها، وعنفوانها، وغموض ما فات من أيّامها. لكنّ أكثر ما عجب له من حاله معها، وحيّره في أمرها، هو أن يعلق هوى امرأة حبلى، وحبلى بولد رجل غيره، وأنّه كلّما فكّر بذلك، اشتدّ ولعه بها، وهو يرى جسدها يفيض بآيات العطاء، فيكبر بطنها، ويعظم ثدياها، ويبرزان جمال نحرها، ويشرق وجهها بأمارات جدّة الحياة وخصبها. وطالما رآها في سرحاته، أو مناماته، أو حتّى في الطريق إلى معاركه، وقد فاض عليه حليبها المُنتظر، فراح يمسح به وجهه، وصدره، إلى أن ينتشي، ثمّ يصحو طالباً الماء، ليبترد، ويغتسل، وبعد ذلك يعود إلى حاله، وهو أشدّ شوقاً إليها ممّا كان!

ولمّا جاوز صبره عليها حدّه، أرسل إليها اثنين من ذوي الهيبة من رجاله، اقتادوها من حانوتها، فسارت خلفهما، في واحدة من دروب

الرقّة غير المطروقة، لاهيّابة، ولا غاضبة، ولا عاتبة! كانت في غاية الحبور، بل لعلّها المرأة الوحيدة التي اقتادها العسكر إلى دار الجنديّة، فكانت في غاية السعادة.

لم تنس ريّا قبل أن تغادر حانوتها، أن تخرج من خزانة نفائسها تحفة من أحسن ما جادت به يداها من عمل، طوال تلك السنين التي قضتها تصنع الخزف. تناولت جاماً أزرق، معروقاً بعروق بيضاء، تسرح على جداره القصير العريض، سبعة أيائل خضراء، لفّته بقطعة من الحرير الأصفر الممسّك، وانطلقت خلف الرجلين.

* * *

شاع الخبر في الرقّة أنّ الجند اقتادوا ريّا بنت مالك الأشجعيّ إلى السجن، بعد أن فتّشوا حانوتها بحثاً عن "مصحف فاطمة"، الذي قد يكون استقرّ بين أيدي بني أشجع، فأخفوه عند امرأة منهم، لبعد شخصها، ومكانها عن الشبهات! فهي امرأة لا لها في العير ولا في النفير، ولم يُعرف عنها كلّ هذا الزمان، ضلوعها في أيّ عمل له علاقة بغير الخزف، وإنّ أحداً لم يعد يذكر عنها خبراً، بعد ما انتهى إليه الحال بينها وبين حسن السعديّ.

ثارت حميّة الأشجعيّين حينما علموا أنّ امرأة منهم، بل بنت واحد من سادتهم، تنالها مثل هذه الإهانة التي لم تُسبق إليها حرّة من حرائر الرقّة، وفي حين كانوا في حيص وبيص، كانت ريّا تجلس مطمئنّة بين يدي القائد سعد، بل هو الذي بدا وكأنّه يمثل بين يديها:

- ما الذي منعك عنّا كلّ هذا الوقت يا أمّ عمرو؟!
- لعلّ الأحرى أن تقول: ما الذي لا يمنعكِ عنّا...! وأرادت أن تقول: يا سيّد الناس، فأعرضت وقالت: يا سعد!
- فما الذي لا يمنعك عنّا إذن يا أمّ عمرو؟!

- كلّ شيء، هتك ستري، وسخط ربّي، وقتال أهلي!
- رويدك.. رويدك.. أكلّ ذلك بيني وبينك؟!
- وأكثر منه يا سعد، أنّني بدأت أفقد زمام أمري.
- بل تملكين الأمر كلّه يا أمّ عمرو، وتملكين معه أمري!

وتقدّم إليها في جلستها على أريكة منفردة في استراحته، حتّى جاورها:

- فأمّا سترك، فله عليّ لزامان: لزام أهل الولاية، ولزام أهل الهوى، فاطمئنّي، وأمّا غضب الله، فوالله يكفيني منك المرأى والحديث...

ثمّ سكت عند قوله، وراح يتأمّل برويّة خصلة من شعرها البنيّ فرّت من تحت غطائها، الذي اضطرب، وأسفر عمّا احتجب من نحرها الأبيض:

- ريّا، والله لا يكون بيننا إلاّ الذي لا يؤاخذنا الله فيه من لمم، لي منك ما بين هذا وهذا، وأشار إلى نصفها العلويّ، فأمّا ما ليس لي، فليس لي، حتّى يحلّه الله لي. وأمّا قتال أهلك، فإنّي والله أكره قتالهم، وأنت فيهم، كُرْهَ الموت، لكنّهم جعلوا الحقّ بيني وبينهم، أفترضين، يا حبّة القلب، أن أضع الحقّ وأرفع الباطل! وأمّا في غير ذلك، فسليني، أجبكِ، قبل أن يرتدّ إليكِ طرفك!

لم تكُ ريّا تجيد الكلام كثيراً، بل لم تعد تجيده كما كانت من قبل، أيّام حسن السعديّ، فالصمت الطويل الذي احتجبت وراءه، ذهب ببلاغة قولها، إذ صارت تحوّل هواجسها ورغباتها خزفاً دون الكلام، لذا آثرت الصمت بعد أن أذهلها ما بثّها الرجل من لواعج الغرام، فقامت تريد القفول، وقدّمت له جام الخزف:

- هذه لسُلافتك!

أقبل سعد على هديّتها موفور الحبور، تأمّل التحفة، وقرّبها إلى شفتيه، وقبّلها قبلاً عدّة:

- لقد حكمت عليّ إذن أن أصابح الخمرة وأغابقها[1]!

عندئذ بان في يده الجرح الغائر الذي ما زال حيّاً، فما كان من ريّا إلاّ أن أمسكت لفافة الجام الحريريّة، ولفّت بها جرحه بحنوّ بالغ، فأردف:

- هذا ما فعله بي من تزعمين أنّهم أهلك! لم يكونوا سوى شذّاذ آفاق، يريدون إنشاء إمارة، ويدّعون الولاية على المسلمين!

- كفاك أيّها القائد، فإنّي لا أحبُّ أن أسمع منك ما يزيد الشقّة بيني وبينك. قالتها وهي تنسحب، فتبعها وهو يشمّ مسك اللّفافة على يده، منتظراً منها إشارة إلى لقاء قريب قادم، أو قولاً يؤنس المقبلات من ساعاته، لكنّ ريّا خرجت من المكان، مثل هبوب ريح، فودّعها وهو يقول متلمّساً اللّفافة على جرحه:

- للّه درّك يا أمّ عمرو، تأسين جرحاً، وتوسّعين آخر!

---

1 أشربها عشيّة.

-28-

بات سعد وليس في الرقّة أحد أثقل وطأة عليه من حرز، فقد كشف الأخير حيله كلّها، وكان كلّما رأى أحداً من رجاله يتفقّد ريّا وأحوالها، راح يُعرّض بالكلام، موصلاً من خلاله رسائل إلى القائد العاشق، الذي ضاق به ذرعاً. وفي يوم، دخل سعد السوق، ومعه جماعة من أعوانه، وطاف راجلاً، يشتري من الحوانيت بضائع مختلفة، وما أن وصل حانوت ريّا، حتّى سارع حرز وأغلق باب الحانوت في وجهه، فبادره سعد، وقد قرّر أن يملك نفسه من الغضب، لاسيّما أنّه صار مؤخّراً يميل إلى مناكفة حرز، واستجرار بعض الأخبار والأقوال من فمه. قال سعد:

- ما عيشك أيّها الرجل أمام الحوانيت، تطيل القعود مع النساء، وتتصيّد منهنّ الغاديات والرائحات؟!

ردّ حرز بهدوء:

- اللّهمّ اجعله شرّ عملي! وأنت قلتها يا سيّدي، تالله هو عيشي الذي منّ به المولى عليّ، إلى أن جئتَ فكدّرته. ألا تراني وقد اكتفيت من الدنيا بهاتيك العذارى، أحلّي بمرآهنّ مرّ زماني! فلم لا تتركني مع ما قُسِم لي، فتذهب إلى ما قُسم لك؟!

- ما قُسم لي هو أن أُظهر ما في عنقي من فريضة بسط الأمن والأمان على هذه الديار!

- وهل يكون الأمان بتعطيل مصالح حرز، وتكدير صفو عيشه! لا والله، فأنا أغضّ البصر، وأردّ السلام، وأرشد الضالّ، وأمتّع نفسي بالأماني!

- بل يكون بالضرب على أيدي من يدعون إلى غير الله ورسوله، ويستحلّون في ذلك دماء المسلمين.

- ليس فينا من يدعو إلى غير الله ورسوله، ولكنّنا أهل وصلٍ أيّها القائد، ولن تحبّبوا إلينا بحدّ السيف من تحبّون، ولن تبغضوا إلينا من تبغضون، فإنّما نريد بحبّنا آل البيت، الله والدار الآخرة، وأنتم تريدون، بحبّكم سواهم، الدنيا وزينتها.

- ومن الذي سنّ لك الغيّ، وأورطك فيه، لتعتقد أنّنا نضمر العداوة لآل البيت؟! إنّما نحن أحرص على دمائهم وكراماتهم من غيرنا، نذود عنها بالسيف، لا باللّسان، وكلّ ما نفعله ليس سوى قمع للفتنة، وتحسّبٍ لما قد يتبعه خروج الكتاب إلى أيدي العامّة، فيعودون إلى غيّهم القديم، وتصير الأمور إلى ما كانت عليه أيّام بني أميّة، فتولد من الفرق القديمة فرق جديدة، حمّالة للحوبات[1] والبدع، فتضيع بين منافراتها فطرة الناس التي فطرهم الله عليها، ولا يكون من خاسر سوى الإسلام!

اسمع يا حرز، ما أنا إلاّ أنت في هذا الهوى، وأمثالنا كثر، لكنّ الساسة يخفون أهواءهم بالتدبير، وأنت تعلنها معوّلاً على التقدير!

- ساسة! أضحكتني أيّها القائد. الساسة لايرون رعيّة الناس ورعيّة الأنعام سواء، ولا تحلّ لديهم دماء المسلمين، ويحرم عندهم طلع التين والزيتون.

---

1 آثام وذنوب.

- لاتهرف بما لا تعرف، ودع الأمر لوليّ الأمر.
- وما أمر وليّ الأمر؟!
- أن يحفظ العباد من شرور العباد.
- ألا بئس الأمر أمره! يجلس في قصره، ويأمر بقتل الناس، وينال على ذلك الدرهم والدينار، عجباً! فلم لا ينزل إلى السوق فيتعلّم صنعة تقوت عياله! من يقوت عياله؟
- بيت مال المسلمين.
- هه، وهل وضع بيت مال المسلمين ليتكسّب منه من أبوه والٍ أو خليفة، ولا ينال عطاءه السائل والمحروم، ومن قعد به بدنه عن العمل؟! الله الله في ملوك السوء الذين طال ملكهم، لكنّ الأمور إلى المصائر أيها القائد.
- أوَتدعو على ولاة أمر المسلمين، مستبشراً بزوال ولايتهم يا حرز!

كان سعد قد ضاق ذرعاً بجدل حرز، بعدما تجمّع أهل السوق حوله، فزاد في كلامه، ونبا لسانه عن حدود القول إلى الإقذاع، فأراد سعد أن يؤدّبه، فما كان منه إلاّ أن أمر رجاله بحبسه.

حينما علمت ريّا بالأمر، غاضبت فيه سعداً، وطلبت إليه إطلاق سراح حرز في الحال:

- إنّه نصف مجنون يا سعد! ما لك وله؟! وماذا سيقول الناس في ذلك: قائد الجيش بجلال قدره يستقوي على الضعفاء والمساكين، تالله لتجعلنا حديث السوق، وأنا لا قِبَل لي بذلك!
- أرهبه فحسب، إنّه يغيظني، فهو الوحيد الذي أدرك باب الوهن منّي، ووهني هو أنت يا ريّا!
- أتعلم يا سعد! حرز هذا أوفى من السموأل، ولو علمت بخبره، لذهبت نفسك عليه حسرات، والأحرى بك أن تضعه تحت

كنفك، لا أن تستعدي لسانه عليك: كان حرز من أحسن رجال الرقّة خُلقاً وخَلقاً، وفي مطلع صباه وقع في هوى فتاة من بنات بيوت بطاح هذه الديار، وبادلته الصبيّة جوى بجوى. علم ذووها بالأمر، ورفضوا تزويجها له حينما تقدّم لخطبتها، ثمّ شدّدوا عليهما الخناق، حتّى عدم كلّ حيلة للقائها. وفي يوم أخذهما فيه نار الغرام، حاول التسلّل إلى دارها، فأدركه الجيران، وأمسكوا به، فما كان من أهلها إلاّ أن اتهموه بالتسلّل للسرقة، و لم يمانع حرز التهمة أو يعارضها، بل ثبّتها على نفسه كي لا يفضح أمر الفتاة التي أحبّها، حتّى أُقيم عليه حدّ السرقة، وهو منها براء. فقُطعت يمينه من غير أن ينبس ببنت شفة.

بعد ذلك، تزوّجت الفتاة بآخر، ورحلت عن الديار، وجنّ حرز بعد أن حلّ به ما حلّ. أفرأيت يا سعد في أخبار العرب أوفى من هذا الرقيّ المجنون!

-29-

اعتادت لبانة في تلك الفترة، أن توصل كتبها إلى سليمان، في فروة أبيها، تفكّ الوجه عن البطانة، وتضع اللّفافة الصغيرة أو القصاصة في الحاشية، ثمّ تخيطها من جديد، فيتلقّفها سليمان على شوق، يعاود فكّ البطانة، يستلم الرسالة، أو يضع رسالته محلّها، ويخيطها من جديد. وهكذا مرّ الوقت، وهما آمنان على أخبارهما ومواعيدهما، إلاّ أنّ الصفراء ديجور اكتشفت يوماً المخبأ، وبغيرة امرأة فارسيّة، سبقت سليمان إلى فتح الرداء، فتناولت الكتاب وأخفته، وصاقب أنْ كان كتاباً لموعد مضروب بين لبانة وسليمان، تعد فيه لبانة سليمان باللّقاء بعد ليلتين، إذ ستخرج لبانة من الرقّة وحدها، بعد زوال الشمس وهجعة البشر، فيتلقّفها سليمان على مشارف الأجمات التي تفصل سور المدينة عن درب الدير، فيقضيان اللّيلة في استراحة كان قد ابتاعها سليمان في إحدى التلاع المشجّرة في ذلك المكان، تعود بعدها لبانة إلى دارها في الصباح، من غير أن تُشعر بها أحداً.

وهكذا رتّبت أمورها، أمّنت قيساً مع ريحانة في الدار، ركبت بغلتها، وانطلقت تحثّ الخطا والدروب غير آبهة بشيء أو بأحد، سعيدة، وقد أعدّت لسليمان من مشتهيات الجسد والروح ما لم يحلم به من قبل.

وصلت إلى حيث الأجمة، فلم تجد في انتظارها أحداً، شدّت رسن البغلة وتوقّفت، ربطتها إلى جذع شجرة، ونـــزلت تنتظر. مرّ الوقـــت بلا حركة، سوى حفيف الشجر، وأصوات أرواح كائنات اللّيل مـــن حولها، وقد أطبقت العتمة على البساتين والفلاة المحيطة من حولها، ولم يبق للبانة من أنيس سوى الأماني التي راحت تتبدّد مـــع كـــلّ نَفَـــس ينقضي على يأس. ران الخوف على قلبها، وحنقـــت علـــى ســـليمان مستنكرة بألم ما حصل، وحاولت أن تقاوم أصوات أرواح الأحياء التي تعلو من حولها، فلفّت نفسها بعباءتها، وتكوّرت على نفسها مفترشـــة الأرض. ومضى الوقت ثقيلاً كالجلمود على النفس من غير أن تتمكّن من الذهاب أو الإياب، إلى أن قرّرت أن تسلك الطريق الآخر حيـــث التلّة التي تتناثر وراءها بعض بيوت الشَّعر للبدو الذين يعيشون حـــول الرقّة.

مشت محفوفة برعب لم تعرفه في حياتها، وهي تجزم أنّها ستموت في كلّ لحظة، سيقتلها وحش، أو ربّما سيخرج لها صعلوك، ولم تفكّر ساعتها سوى بقيس، وكيف تجرّأت على أن تفعل به ما فعلت! لمـــن ستترك الطفل بلا أب ولا أمّ؟! ثمّ كيف سوّلت لهـــا نفســـها، وهـــي العزيزة، أن تذهب إلى الرجل بجلال قدرها، على بغلة في هذا اللّيـــل، والحريّ بمثلها أن تُرسل إليها الهوادج المحمّلة على مرأى مـــن النـــاس ومسمع!

لعنت سليمان، ولعنت ريح الهوى التي ضربت رأسها في ســـاعة الشيطان، ولم يخرجها من أتون أفكارها سوى حركة قريبة مباغتة مـــن ثغر في العلوة على يمينها، فجفلت، وجفلت معها بغلتها، إذ لم يكـــن كلباً ذلك الذي خرج من الثغر، رغم أنّه يشبه الكلب، نظـــر إليهـــا الحيوان برهة بعينين لامعتين، ثمّ مضى في طريقه مبتعداً عنها، حينـــها

أدركت أنّه ذئب، فغاب قلبها وانهارت بكاء، إلى أن وصلت مضارب البدو، راجية الله ألاّ يعرفها أحد، وألاّ يسألها أحد. خرج إليها بعض القوم فآووها، وأمضت بقيّة اللّيل في تبكيت وبكاء، ولا رجاء لها سوى أن تعود إلى ولدها سليمة، فتقضي بقيّة عمرها إلى جانبه، أمّا سليمان، فلن تراه بعد اللّيلة، ولا يهمّها إن كانت ستحتفظ بالمرارة التي تركها في قلبها أم ستنساها، مثلما لايهمّها إن كان غيابه لسوء حلّ به، أم لعدم مبالاة بها، وإن كانت تفضّل الخيار الأوّل على الثاني، فتلك اللّيلة هي الفراق بينها وبينه.

* * *

الذين تموت أمّهاتهم يتحالفون مع الريح، تفكّ وثاقاتهم المشدودة إلى العالم، لكنّها تضربهم بسياطها! هذا ما كان عمر يردّده أمام لبانة، كلّما زارها في حانوتها، وهذا اليتم بالذّات كان بند التواطؤ الأوّل بينهما.

كانت أمّ لبانة امرأة قويّة وفتيّة مثل ناقة، لا تشكو من داء أو علّة، وبين يوم وليلة ظهرت عليها أعراض اليرقان، وشخّص حكماء دير زكّا أنّها تعاني من داء في الصفراء، وأن ما هي سوى أيّام معدودة وستقضي. كانت لبانة تتابع كلمات الطبيب من غير أن تبحث عن أيّ أمل، لأنّ إحساساً قديماً كان يطرقها دائماً، يقول لها إنّ النهاية ستكون هكذا: بهذه البساطة، وبهذه الفجيعة! كتمت دموعها، ومثّلت السكينة كي لا تُشعر أمّها أنّ شيئاً يحدث.

في اللّيلة الأخيرة لهما معاً، جهّزت لبانة نفسها لاستضافة الملاك، كانت تراقب كلّ شيء حولها وكأنّها تريد أن تكشف ماهيّة الموت، وتقابل جنوده، وكأنّ التي بين يديها ليست أمّها. سقتها ماءً، وأخذت رضاها، وكلّمتها، وقبّلتها بهدوء.

دخل ملاك الموت، شعرت به يضيء الدار بصمت، ونسمات باردة دخلت معه، دار حول الفراش، وهي تتبعه مع نظرات أمّها. كانت هي الأخرى مطمئنّة وادعة، اقترب منها، ثمّ وقف بينهما، وفي وقت قصير كان قد أنجز مهمّته، والأمّ تتبعه بلا ممانعة، خرجا معاً، وتركاها وحيدة، وفكرة أنانيّة تراودها، وهي أنّها ستكون بدءاً من تلك اللّحظة وجهاً لوجه أمام أفعالها، من غير سند ملائكيّ، فقد ذهبت التي كان الله يكرمها من أجلها! حينما وصل أبوها وإخوتها، كانت وحدها مع جسد أمّها بلا بكاء.

لم تبك لبانة أمّها إلاّ بعد سنوات طويلة، وذلك في اللّيلة التي تركها فيها سليمان وحيدة في الدرب بين الرقّة ودير زكّا!

أمّ عمر ماتت أيضاً، ماتت حينما كان في السادسة من عمره، كان عائداً من درسه في المسجد الجامع، وتوقّف في الطريق ليلعب مع صحبه، في تلك الأثناء سمع اسمه يتردّد في الهواء، فلم يستوثق. توقّف عن اللّعب وأصغى، كان المنادي يصيح على عادة أهل البلد: ماتت أمّ فلان، وفلان، وفلان...

كان عمر، كما تقول لبانة، أيتم منها، لأنّه كان صغيراً، وكان ما يزال ينام إلى جانب أمّه، وكانت كبيرة، ولا تنام إلى جانبها، وكانت تعجب كيف تخلو العربيّة من اسم التفضيل من اليتم، ولطالما ناقشت في ذلك من عرفته من أهل النحو واللّغة.

في تلك اللّيلة التي قضتها لبانة في خيمة البدو، عادت يتيمة من جديد، وهي ترتجي الصباح، وما أن شعرت بخيوط الشمس الأولى حتّى قفلت عائدة إلى دارها، وأوت إلى جانب ولدها، وقد قرّرت أن تطوي على ما حدث تلك اللّيلة إلى الأبد.

صارت عباءة الأب خلواً من المراسيل، فعزم سليمان على النزول إلى الرقّة مستقصياً أسباب الجفاء، وحينما وصل الحانوت، وجد أمامه عمر بن مالك الأشجعيّ، يدير الأمور وكأنّه من أهل الدار، فامتلأ قلبه حقداً، وصفع لبانة بنظرة شزراء، ومضى. المرارة التي احتفظت بها لبانة من ليلة الأجمة، منعتها من أن تهتزّ لها جارحة، كانت تفكّر أحياناً أنّ صرم[1] سليمان لها، عقبى مألوفة لما تفعله النساء مع الرجال حينما يمنحهنّ ما منحته من الجنى، وأنّ سليمان ليس استثناء كما كانت تعتقد. لكنّ عزاءها في هذه الحكاية أنّها احتفظت بروحها، وذلك حينما احتفظت بكلمتها، فهي لم تقل له يوماً بأنّها تحبّه، رغم أنّه كثيراً ما كان يسألها، بل كان يسألها كلّما التقاها، وكانت تهرب من الإجابة إلى الشهوة، فيسكت عنها، لكنّه يظلّ مهما منحته، من غير رواء، منتظراً الكلمة التي منعتها لبانة عنه، لأنّها أدركت منذ وقت مبكّر أنّ المرء توّاقٌ إلى ما لم ينل!

مكتبة
t.me/soramnqraa

1 هجر.

-30-

ظلّت ثنائيّة (سليمان وديجور) تنغّص عيش لبانة، كلّما خطرت في بالها الصور التي جمّعتها من زياراتها السريّة إلى جنينة سليمان التي يطلّ عليها محترفه، فتجدهما أمام النول الخشبيّ الفاخر، المُطعّم بالصدف: ديجور تفصل بقضيب خيوط السداة واحدها عن الذي يليه، فيقوم سليمان بتمرير خيوط اللّحمة بوساطة مكّوك، ثمّ تعود ديجور بسكّين معقوفة الشفار، لتقطع بها خيوط الوبر بعد عقدها، وبعدها يضربان معاً على امتداد عرض السجّادة بمضرب خشبيّ، لتمتين العقد ولبدها، لا يكلاّن، ولا يملاّن!

سجّاد سليمان غنيّ بالألوان الغامقة، وفي حين يستعمل معظم النسّاجين في بلاد فارس العقدة الفارسيّة، يستعمل سليمان العقدة البيزنطيّة التي يُشتهر بها السجّاد التبريزيّ دوناً عن غيره، وذلك لقرب تبريز من بيزنطة.

تشيع في نسج سليمان الأرضيّات شبه المفرغة ذات الأساس الحريريّ، وهو أوّل من ابتدع الكتابة على أطرافها، يزيّنها بالحكم المأثورة، وأبيات الشعر التي تناسب أحوالاً ومقامات، وبعض الآيات الكريمة للقطع المعلّقة على الجدران. وله شغف بموجودات المكان من حوله: زهرة الليلك، ونهر الفرات، وشجر الزيتون والرمّان، وسيقان البَرديّ، وطيور النورس، والهداهد الفراتيّة، والغزلان، ولعلّ أروع

تصاويره هو نسج الغزال تحت شجرة الكمّثرى، وهو غزال ملتفت نحو الثمر المعلّق على الشجرة، يعضّه وحش أشبه بنمر في جيده البضّ الذي لا يُقاوم. هذا عدا عن الأشكال التي تعلّمها سليمان في تبريز وكاشان من صور البساتين والحدائق المقطّعة، على هيئة ما هو منتشر في بلاد فارس، كلّ مربّع يحوي رسم حيوان أو شجرة ممّا هو معروف هناك، أو من الرسوم الأخرى الشائعة من مثل مزلاج الباب، وقرن الكبش، والخنجران، وأضمومة الورد، وزهر الفرنجة.

يعكف سليمان على شغله منذ لحظة الولادة، فله مرعى محدّد يشتري منه الصوف، ووقت محدّد لذلك أيضاً، فهو لا يأخذ إلاّ من الجزّة الأولى، جزّة الربيع، ويختار لصنع الوبر صوف الرقبة والأكتاف، لنعومته، وغناه بالدهن، ويمشّط الصوف بحيث تصير تيلته متوازية، لذا عندما يُغزل، تكون النتيجة خيوطاً ناعمة ولامعة ومتينة، أمّا لِلَفْق الحواشي، فهو يفضّل شعر الجِمال.

لا يشتغل سليمان بالقطن، أمّا الحرير، فله معه شأن آخر، إذ يُشغّل مزارع عديدة للقزّ حول الرقّة، ويتعامل مع أهمّ القزّازين، وحيث أنّ الحرير ينماز بالمتانة، والنعومة، واللّمعان، وخفّة الوزن، فهو يصوغ منه القطع الصغيرة التي تُعلّق على الجدران، أو تلك المخصّصة للدواوين والأرائك الوثيرة، ويدخل فيها خيوطاً من الذهب والفضّة، تضفي عليها متانة، ووهجاً، وسحراً.

* * *

ولّما بلغ الهوى من سليمان مبلغاً عظيماً، ذهب إلى وهّاب في بيته المكوّن من حجرة من الطين، مزروعة على سفح التلّ الذي يعلوه الدير بجلال قوامه، وتتهادى في أسفله ساقية تتفرّع من نهر (المريء) بعذب مائه.

جلس الصاحبان ليلاً حول قبس من نار أوقدها وهّاب وسط جوسق السعف أمام الدار، وقد أتى سليمان بعشبة راح يغليها على النار أمامه، عشبة نادرة، يؤتى له بها من جبال بلاد البلقان، لها أثر عجيب في تفتيح عروق الجسد، وإطلاق مقيَّدات القلب والروح بلا حرج، وهو لا يشارك بها سوى وهّاب، مثلما لا يبادرها سوى مع ذاته، حين يضيق صدره وجداً ووحدة، أو قبيل أن يستقبل جسد لبانة الآسر:

- أتعلم يا وهّاب! لقد عرفت النساء أشكالاً وألواناً، حرائر وجواري، من كلّ ملّة ونِحلة، لكنّ للبانة مداراً منفرداً، أملتُ أن أكون نواته، إلاّ أنّها تجذبني، ثمّ تقذفني، وأنا لا أفعل شيئاً سوى أن أنجذب وأنقذف على هواها، وهذا ما لم تفعله بي حتّى أميرات الفرس والروم!

حرّك وهّاب قسماته الحليمة، وهو يرشف من شرابه:

- العربيّة شيء آخر يا سليمان! إنّها موصوفة بالعزّة، والعزّة حقيقتها الامتناع، والعزيز لا يُدرك، ولا يقبل الغير.
- لكنّها كانت لي ومعي، أكثر ما تكون امرأة لرجل؟!
- نعم، هي عزيزة في المنع، وعزيزة في العطاء، بل إنّها تهب ولا تعطي، والهبة منح وتودّد من غير احتياج إلى محتاج إليه، ولا تكون بشرط استحقاق.
- أوَترمي إلى أنّني لا أستحقّها؟
- بل أرمي إلى أنّها تهب، وأنت تقهر!

صمت الجليسان برهة، ثمّ تابع وهّاب:

- القهر يا سليمان غلبة، لكنّها هلاك، وكلّ شيء هالك، إلاّ وجه الكريم!

- بل هي التي تقهر. قاطعتني بلا سبب، وأعرضت عن كتبي إليها، فلم أحر جواباً، ولمّا رحت كي أسألها الأسباب، وجدها تجالس ابن مالك الأشجعيّ، الرجل الذي تعلم الرقّة كلّها أنّها أطاحت بلبّه هياماً! ورغم أنّني رجوها أن تترك الرقّة، فتعود إلى الدير، وأنّها لم تستجب لتوسّلاتي، بقيت أصلها، وهي تصرمني، حتّى لم تُبقِ بيني وبينها مكاناً للودّ، وأنا لم تعد نفسي تطاوعني على إذلالها أكثر فأكثر، ولم يعد قلبي يحتمل الصدّ! وعندي من الهمّ والشغل ما يبعدني عن ألهيات أهل العشق والفراغ!
- لأنّك لم تخفض لها جناح العطف يا سليمان، في حين فعل الأشجعيّ ذلك، وأنت قابلتها السهم بالسهم، والحجر بالحجر. لبانة وحيدة وحزينة، وعلى عاشقها أن يقامر بكلّ ما يملك، فمثلها تستحقّ أن تفرغ ما في كنانتك من أجلها، حتّى لو عدتَ خائباً، فلا تفرّط بها يا صاحبي، من أجل ساعة تأخذك فيها العزّة بالصدّ، فتقعد عمرك ملوماً محسوراً، فالصدّ مكتوب في الجبروت، والوصل مسطور في الملكوت، اجعل قلبك لها عرشاً، وقل لهذا الحبّ: كن، وسيكون.
- بل لن أمضي في هذا الغيّ مترقّباً قدومها، وكتبها، وأخبارها، سأتحوّل إلى بغداد، وبعدها إلى تبريز، لي أعمال هناك تنتظرني، وإن قدّرت لي العودة مع انقضاء الشتاء، فسيكون لي معها حديث آخر!
- كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً إذن!

أسند سليمان رأسه إلى عمود الجوسق خلفه، فواجهته السماء تكشف عن ألق كواكبها تلك اللّيلة، فبعث من صدره نفساً عميقاً، وقد لانت لهجته، وأسفر وجهه عن ملامح عاشق أصيل:

- كم أفتقد أُنسها! كيف لي وأنا الملول العتيد ألاّ أملّ صورها، أو حركتها، أو كلامها، أو ديدنها، حتّى حينما تكون معي، أكون في شوق لكلّ ما تقول وتفعل، وبانتظار العبارة التالية، والحركة التالية، التي تحمل دائماً ما يدهشني، وما لاأعرفه، وما تسعدني معرفته!
- لا يَفُتكَ يا سليمان أنّها كاتبة، والكاتب يخطّ علم الله في خلقه، ويعرف ما كان، ويقرأ ما هو كائن. إنّ هوى لبانة وديدنها المداد والقلم، وهما مباركان، فالوجود مداد المطلق، والموجود قلم الحقّ!
- تالله إنّك تزيدني بها صبابة، وتحملني على الخيفة منها، وأنا الذي عهدتُني قويّاً لم يخش امرأة ولا رجلاً!
- القويّ هو القادر على نفوذ مشيئته، وأنت لا تستطيع تسخير أفعالك لخدمة قلبك، أمّا هي، فامرأة قادرة، لأنّها بقلمها تحوّل الصور، وتجري في حياتها المجرى ذاته، وأنت تشبهها من حيث أنّك تحوّل بآلتك خيوطاً وأمشاجاً منفلتة وكثيرة ومتعدّدة، صورة بهيّة واحدة فردة، تدعو إلى التدبّر، لكنّك ما أن تخرج من صومعتك حتّى تنسى ذلك، ولا تعتبر به في حياتك.. إيه، يمحو الله ما يشاء ويثبت!
- ماذا عساي أفعل معها؟! أخرج من حالي وأحوالي، وأجاورها في الرقّة، أتضرّع إليها لتكون معي، أم أخطفها إلى مكان بعيد، فأقيّدها بالسلاسل حتّى أدرك منها عهوداً ووعوداً لا تُحلُّ إلاّ بالموت؟! إنّها مثل المسنّ يا وهّاب، تشحذ ولا تقطع، وقد أبلتني سياستها وأسأمتني!
- بل آلمتك يا صاحبي، آلمتك لأنّ ألمها وملاذها وفرحها، ليس من ألم الآخرين وملاذهم وفرحهم، إنّها منفكّة عن غيرها، وهذا ما لم

تعرفه في امرأة قبلها، وذاك ليس حبّاً يا سليمان، بل هو رغبة في القهر، ولبانة لن تكون مقهورتك.

- ليس حبّاً! فكيف يكون الحبّ إذن، وأنا أفعل أزيد ممّا فعله العشّاق قبلي، وممّا سيفعلون بعدي؟!

- لأنّ الحبّ لا يُدرك بذاته، فهو بذاته معدوم، الحبّ يتعلّق بوجود الموجود، أي يُدرك بالحبيب يا سليمان، وحبيبك ليس كالأحبّة، لذا حبّك ليس كحبّ العشّاق لا من قبلك، ولا من بعدك.

- لعلّك تظلمني يا وهّاب، فقد مشيت على ديدن أكبرهم وأصغرهم، ولكن يبدو أنّ قلم الحقّ، كما تقول، لم يخطّ حكايتي ولبانة في لوحه، فكيف لي أن أبثّ ما محاه القدر؟!

- ويحك يا سليمان، أتتصدّى لحجب الغيب، ولست أهلاً لتتكشّف لك! اعلم أنّ الحبّ ليس خطّاً مرسوماً تقصّ أثره لتفلح في النهاية، إنّه شعب كثيرة أنت خالقها، فالطريق إليه كالطريق إلى الله، لا تعلم في أيّة خطوة يحقّ اللّقاء، عليك أن تمضي فحسب، أن تمضي مصدّقاً قصدك، فالتصديق إكسير الخير، وأن تمضي وقد نزلت من أفق الجبروت إلى تجلّي الرحموت!

سرى الشراب في عروق سليمان، فغلبته تباريح العشق بدموع مثلما لم يحصل من قبل. لقد كان مضنىً بين جبروته الذي أرباه كلّ ذلك الدهر، فأحاط نفسه بسياج العزّ والهيبة، وبين نشوة الفرح الذي يعمّر قلبه، فيجعله بكفاية عن الدنيا وأهلها، ساعة تكون لبانة السلميّة بين يديه!

-31-

عزمت ريّا على تلبية دعوة صاحبتها لبانة، فطلعت وأولادها إلى دير زكّا، بنيّة قضاء أيّام ثلاثة أو أربعة، وجدت نفسها بأمسّ الحاجة إليها، إذ أرادت الانزواء عمّا يدور في الرقّة، مثلما أرادت أن تشعر أنّها على بعد مسافة من سعد، علّ وطأة حضوره في أيّامها تخفّ، ثمّ لا بدّ لها من أن تمنح الأولاد سانحة التمتّع بطبيعة أواخر الصيف الساحرة، بين سواقي الدير، وبساتينه، وبدائع خضرته وفاكهته. ولعلّ أهمّ من هذا وذاك، حاجتها للحكي عن معاناتها في وقوعها بين نارين: نار رغبتها في سعد، ونار رهبتها من كلّ ما يدور حولهما. إنّها تدرك كم هي واجدة! وما أوحش الوجد بلا مساعد، كما كانت تقول في نفسها، وليس أقدر من لبانة على مساعدتها، فلعلّها أنضج من عرفت من نساء، وأكثرهنّ علماً بأسرار القلوب، فضلاً عن كونها عاشقة كليمة أيضاً، لكنّها أثبتت، حتّى الآن، أنّها تملك من القوّة والتدبّر، ما يفوق قدرة الهوى على إطفاء جذوة حِلمها.

كانت لبانة قد هيّأت كلّ ما يمكن تهيئته لاستقبال الصديقة وأطفالها، إذ أرِبتْ من هذه الزيارة تمرير مزيد من الوقت، بانتظار إشارة تأتي من جانب سليمان، فلم تكن تريد أن تكون المبادِرةَ بأيّ حدث، فقط ستنتظر ما يفعله هو، سيصلها، أم سيصرمها!؟

لقد بات هواه يثقلها، وأيّام الشقاء التي صارت تقضيها وهي في قبضة الجوى، أكثر بكثير من أيّام الهناء التي كانت تتوق إليها، إذ لم تعد تطيق حالة الأسر التي تحياها، تتلقّط حركاته، وسكناته، ورواحه، ومجيئه، وسفره، وحلوله، ثمّ...، ثمّ لا شيء. إنّها في شوق الآن إلى إشارة منه أيّاً كانت، فتهدأ نفسها، وتستقرّ على مستقرّ واضح.

* * *

لم تكن قدما ريّا قد وطئتا الدير منذ آخر زيارة لها لحسن السعديّ قبل سنوات، وقبل أن يسافر به أهله إلى بغداد. تناول الجميع غداءهم بسرور، انطلق بعدها قيس وضيوفه، يلعبون في البساتين، يتسلّقون الأشجار، ويقطفون ما نضج من التفّاح والتين، فيأكلونه بنهم، ذلك أنّ لفاكهة الدير طعماً مختلفاً عن سواها، لشدّة روائها! أمّا العنب الذي ما زال بعضه حصرماً، فكانوا يتناولون من حبّاته، فيعصرونها في عيون بعضهم البعض بشقاوة، وهم يجرون تحت الدوالي، لينال كلّ منهم من الآخر، بعد أن يكونوا قد وصلوا حدّ العراك بالألسنة والأيدي.

جلست المرأتان تحت شجرة التين الوارفة، أمام الدار، تشربان منقوع القرفة المغليّ بالجوز. لقد حلّ في ذلك العصر وقت المكاشفة بين ريّا ولبانة، إذ كانت كلّ منهما مثل قربة من الهمّ منتفخة، إمّا أن تفتح فوّهتها فتفيض، وإمّا أن تنفجر متمزّقة إرباً إرباً!

قالت ريّا:

- وكيف هي حالك مع سليمان يا لبانة؟!

نفثت لبانة نفساً من أنفاسها الحرّى، وقالت:

- ما زلتُ أنتظر منه إشارة، وقد طال بيننا الحجاب، وأبطأ عليّ الكتاب، فلم أره منذ شهرين، وبتّ أشعر بأنّني لم أعد بحاجة إلى حبّه!

عجبت ريّا من كلام جليستها، فقالت:

- وهل الأمر أمر حاجة؟!

- نعم، ليس أكثر من حاجة، ألا يولد الحبّ من عَوَز في النفس إلى شيء ما، نجده عند الآخر، أو نتوهّم أنّنا وجدناه، فإن لم يكن عنده، أو كان، و لم يمنحنا إيّاه، فما الذي حقّقناه إذن!

- وأنت، ما الذي تحتاجينه، و لم يمنحكِ إيّاه سليمان؟

صمتت لبانة قليلاً، محدّقة في الأفق الذي راحت فظاظة شمسه تتلاشى، ثمّ أردفت:

- السّكينة!

لم تُبدِ ريّا ردّ فعل، وانتظرت لتسمع المزيد من الحديث الذي شاقها:

- يا ريّا! لقد شربتُ الهمّ بالصغير وبالكبير، فما أن أشرفتُ على الدنيا، حتّى غافلني الموت، فخطف أمّي التي كانت رفيقتي ومؤنستي، وبقيت مع أب انشغل عنّي بزراعته، وأبنائه، وإخوة لكلّ منهم من مشاغل الدنيا ما يُلهي عن التقاط النَفَس. رحلت مع الرجل الذي أحببت، مغضبةً جميع من حولي، لكن ما أن وطئت بغداد حتّى راحت عقارب الغربة تلسعني، أجلس في البيت، فلا أجد فيه خفقة روح، وأخرج إلى الدروب والأسواق، فأمشي ساعات وساعات، من غير أن تركن نفسي إلى وجه أعرفه أو يعرفني، أو إنسان يسألني عن حالي وأحوالي، والله! ما أتت عليّ ليلة واحدة، إلاّ ودموعي قد أغرقت الوسادة تحت خدّي، وما بي من داء سوى الغربة! ثمّ يغادرني الزوج عروساً على حين غرّة، وفي أحشائي طفل، على أمل أن يعود بعد شهرين أو ثلاثة، فانتظرت شهوراً، نمتُ وحدي، وصحوت وحدي، ومرضتُ

وحدي، وولدت الطفل وحدي، وعشت غريبة وحدي، حتّى بتنا غريبين اثنين، أنا وصغيري، ثمّ مرّت سنوات من غير كتاب أو إياب، إلى أن عرفت من أخبار زوجي ما عرفت، فقضيت أيّامي في فرط التعاسة، فكيف لامرأة مثلي أن تُهجر إلى غيرها، ثمّ تُترك بلا أهل أو سند، وأنا التي تركت مالي، وجاهي، ووطني، من أجله!

لم يكن يخرجني من همومي سوى العمل في ما أحبّ وأعرف، في نسخ الكتب، لكنّ حديثها شجون يا ريّا! فماذا أحكي لك عن جشع التجّار، وغشّ النسّاخ، وتقريبهم الحرام، ومجافاتهم الحلال!؟

كنتُ أُري أصحاب دكاكين الوراقة خطّي، فيعجبون به، وأنا سريعة الكتابة، بيّنة الخطّ، وخير الخطّ ما قُرئ، أتجنّب المماطلة، وأفي بالوعد. لم أغيّر أو أبدّل، أو أُصحّف، أو أُحرّف، أو أُسقط بعض الكلمات أو العبارات، أو أدسّ لأثبت تفوّق ملّة على أخرى، أو قوم على قوم، كما يفعل بعض نسّاخ بغداد، و لم أنسخ من غير إعجام أو ضبط، عملاً بقوله صلّى الله عليه وسلّم لمعاوية رضي الله عنه: "يا معاوية، ألقِ الدَّواةَ، وحرِّف القلم، وانصب الباء، وفرّق السّين، ولا تُقوِّر الميم، وحسّن الله، ومِدَّ الرحمن، وجوّد الرحيم.". وكنت أنسخ الختمة الشريفة على الكتاب الأوّل فحسب، أي على الرسم الذي اجتمعت عليه الأئمّة على ما وجدته برسم عثمان بن عفّان رضي الله عنه، و لم أنسخ مصحفاً في أجزاء متفرّقة، كما يفعل غيري، إذ قال الله عزّ وجلّ: ""إنّ علينا جمعه"، وأولئك يفرّقونه. وما نسخت كتاباً إلاّ ورفعته على مرتفع، وتوضّأت، واستقبلت القبلة، وبسملت في أوّله، وحمدت في ختامه، في حين كان غيري يكتب على عجل، ويحذف من

أثناء الكتاب رغبة في إنجازه، وتلك خيانة تضيّع العلم، أو ينسخ للظالم، فيعينه على الظلم.

وكنت قد آليتُ ألاّ أنسخ كتاب الله تعالى إلاّ على القرطاس الثمين، ورق البرديّ الفسطاطيّ، وحبره من سخام النفط، أزيده من مسك ماورديّتي النفيس. قراطيس مصر البرديّة يا ريّا غالية الثمن، فاللّفافة التي تبلغ ثلاثين ذراعاً ثمنها أزيد من دينارين. أمّا الكتب الأخرى، فأنسخها على ورق الكاغد، وقد صار كثيراً، يصنّع في سامرّاء وبغداد، وحبره حبر الدخان، وهو أرخص ثمناً، أشتري الكاغد بخمسة دراهم، وأربعة أرطال من الحبر بدرهم، فأكتب فيه من مثل رسالة الجاحظ (في التربيع والتدوير) في ثلاث ليال، وأبيّضه، بمئتي درهم، يدفعها أصحاب دكاكين الوراقة، في حين يبيعونه بخمسمئة درهم ويزيد. أتعلمين أنّي نسختُ المصحف الشريف خمس نسخ في مكوثي هناك، أبتغي الأجر والثواب، وأنني في سنة واحدة نسخت صحيح مسلم خمس مرّات حتّى صارت يداي أضعف من قصبة، وتحسّست لبانة يمينها، ففطنت إلى الألم الذي اعترى مفاصلها، وتأوّهت.

وهكذا، وحدي بقيت، يغتالني شوق إلى رجلي، وغيظ منه، وحزن على طفل ولد مثل يتيم، ولم أجرؤ على العودة إلى الديار مخافة أن يأتي زوجي فلا يجدني. بعد ذلك اشتعلت ألسنة الناس من حولي، وكثر عليّ الخاطبون الذين طرقوا بابي، فأرّقوا ما بقي لي من طمأنينة! ثمّ أعود هنا لأسكن وأسلو، فيطلع في وجهي سليمان! يحنو عليّ، ويزيّن لي من حلاوة الأيّام ما يسعدني على مَرّ الزمان، ويساعدني عليه، فآمل وأرجو، ويخيب في كلّ مرّة أملي، إذ يجافيني حضنه بعد طول احتواء، فأعود إلى غربة أوحش وأمضى، وليس منها شفاء. لقد

سلّمته روحي يا أُخيّة، فعاث بها فساداً، إذ قابلني بالذي منه فررت، بالوحدة، والقلق، والهجر. نكأ جرحي بجرح أعمق، ونكء القَرح بالقرح أوجع يا ريّا.. أوجع!

أطرقت ريّا، وقد ملئت شجناً من حكاية رفيقتها، حتّى أطلّ الندى من عينيها الخضراوين، وقالت:

- وبعد يا لبانة، أين أمست حكايتك معه، وماذا تنتظرين منه؟
- هذا رجل لاهمّ له سوى سجّاده، ومن ثمّ تجارتهِ القائمة على تلك الصناعة. يتركني بالأيّام، بل قولي بالأشهر، ثمّ يعود وكأنّه ما غادرني إلاّ أمس، فيبثّني من لواعج حبّه ما يذوب له الحديد! ثمّ نلتقي بعدها ولا حديث له سوى عن رحلاته، وإرباء تجارته، لا نتكلّم على حالنا إلاّ لماماً. لم أعد أريد أن أراه، فكلّما حدث ذلك، وجدته يشعلني، ثمّ يتركني أنطفئ وحدي، لعلّه يقضي وطره من الكلام وسواه مع ديجور، فهي مثله، لها في السجّاد غوى عجيب!

قاطعتها ريّا باستنكار:

- ديجور! لا يا لبانة، فإنّ النفس لا يمكن أن تهفو إليها، ثمّ إنّ من عنده امرأة مثلك، متّقدة كمشعل يضيء في الظلام، ويلهب ما حوله، لا يمكن أن يلتفت إلى ديجور، إنّها باردة وصفراء مثل الموت، لكنّ سوء الظنّ يا عزيزتي من شدّة الحبّ!
- وما أدراكِ يا ريّا، فللرجال ذائقة غريبة أحياناً، فما نراه نحن قبيحاً، قد يجدونه غاية في الجمال، ثمّ إنّك لو راقبتهما معاً في محترفه الخاصّ، لما قلت عنهما سوى إلفين! أتعلمين يا ريّا: إنّ كلّ ما يحدث في الرقّة من قتل، وتنكيل، وتهجير، وفرقة، لم يعنِ سليمان في شيء، لم يُعلّق عليه، أو يبدي قلقاً، بل أشعر أحياناً أن ليس له به علم!

- لعلّه مع الفريق الظافر أبداً، أيّاً كان ذلك الظفر، وكثـرٌ أولئـك الذين هم مثله!

وفي حين كانت لبانة تحكي بحرقة، طرقت في رأسها طارقة الهجر، فقالت:

- لابدّ لي من أن أتوقّف عن ذاك الغيّ يا ريّا، فأنا أستحقّ حالاً أحسن من هذه الحال، أستحقّ رجلاً يدلّلني، ينشغل بي، يمتّعني، يغرقني بهداياه، كما يفعل الرجال مع النساء!
- لن تكوني سعيدة إلاّ إذا ما مضيتِ وراء قلبك!
- مضيتُ وراءه طويلاً فأضناني، ونقلني من غصّة إلى أخرى، وأنا أريد أن أفرح!

كانت ريّا تجد لبانة امرأة ذات أشجان، ولكنّها، وهي غرقى في شجونها، جميلة، وقويّة، وآسرة، وتستحقّ أن تنال أفضل رجل على هذه البسيطة، لذا قالت لها على استحياء:

- كان عمر أخي سيسعدكِ يا لبانة!
- عمر، فديتُ بنفسي عمر! في الوقت الذي كان فيه سليمان يكويني بلظى الحبّ والصدّ، كانت الأواصر بيني وبين عمر تنضج على نار هادئة، لكنّني وبلحظة، أطفأت تلك النار بقوّتي كلّها، إذ لا أريد أن أفسد روح الفتى النقيّة بأن أكسر قلبه. لم أشعر بعمر سوى مثل أخٍ لي، بل ولدي يا ريّا! فأنا امرأة عشت الشطر من حياتي الذي أثقلني بهموم ليس ذنب عمر أن يشاطرني بها، فقلبه لم يزل أخضر، وروحه غضّة، ثمّ إنّي بقيت على أمل أن أكون وابن عمّي سليمان معاً، فالأحوال كلّها تشير إلى أنّنا يجب أن نكون معاً، إذ ليس بيننا عاذل أو رقيب، وليس ثمّة ما يمنعه عنّي سوى تلك العنجهيّة.

- لعلّه يريد أن يختبر حبّك له! أن يضعك على محكّ الهجر، حتّى يثبت له أنّه امتلك قلبك إلى الأبد، فأنت امرأة مشغولة أيضاً، وأمّ، وقد عرفتِ الرجل قبله، وطلاّبك كثر، لذا فحريّ به أن يتوجّس أو يغار، إلاّ إذا كان ما بينكما ليس حبّاً، وهذا ما لا يستطيع معرفته أحد سواك!
- لو شككت في ذلك لحظة يا ريّا، لحظة واحدة، لرميتُ هذا القلب بما فيه من جوى سليمان في الفرات، لكنّ المرأة أيّة امرأة، تعرف إن كان رجل ما يحبّها أو لا يحبّها، حتّى لو أبدى لها عكس حاله طوال الدهر، ثمّة شيء في قلب المرأة لا يكذبها، وإن أرادت، وأنا أعلم أنّني أخذت سليمان أخذ مقتدر، وأنّه مذ رأى خيالي في معدن قدحه، وحتّى اللّحظة، وهو أسير روحي وجسدي، لكنّه ضنين في هواه، وهذا طبع في بعض الرجال، يظنّون أنّهم بذلك يبقون المرأة طوع بنانهم، لكن ما فات سليمان، أنّ النساء في الهوى لسن على خلق واحد، فمنهنّ من تأتي بالصدّ، ومنهنّ من لا تأتي إلاّ بالودّ!

صمتت ريّا، ثمّ راحت ترشف من قرفتها، تنتظر المزيد من أحاديث الجوى، كي تقرن بها حالها بحال صاحبتها، لذا تابعت لبانة إفراغ ما في جعبتها:

- أنا معه مثل من فغر فمهً يريد ماء السماء، فإذ بالقطرة، تمرّ بشفتيه مروراً، فلا يتلقّفها لسانه، فيبقى صادياً مدنفاً، في حين أنّ قلبي أشبه ما يكون ببادية الرقّة الجنوبيّة أيّام القيظ، مفدّعة الأرض، حتّى لتكاد الخيل تعثر بين شقوقها التي تشتاق الريّ لتندمل، فتعلّلها السماء ببرق خلّب. لذا لن أمضي منذ اليوم إلاّ وراء بهجتي!

- أنا على يقين من أنّه عائد إليك، هو عائد لا محالة، وما ذاك الجفاء سوى اختبار، أو لعلّها حيلة يستدرجك بها، لتعلني أنت عن رغبتك فيه.
- حيلة! أضحكتني، أضحك الله سنّك! ليست لبانة التي تفعل ذلك، ثمّ إنّني بتّ أعرفه جيّداً، القسوة فيه طبع، لا يستطيع عنه حياداً، وإن قتله الندم بعد ذلك، وصدّقيني يا ريّا، من يقدر على مجافاتك، لابدّ يقدر على صرمك، هذا ما يعرفه العشّاق عن الهوى، ثمّ إنّني تعبت من اختلاق الأعذار له، حتّى خيالي تعب وأتعبني معه لشدّة ما تصوّرت، وغزلت من أحلام في اليقظة والمنام على حدّ سواء. لن أعود إلى أحد، ولن أنتظر من أحد شيئاً.

سحبت كلّ من المرأتين في اللّحظة ذاتها، النفس العميق ذاته، ونفثتاه مبتسمتين لذلك التزامن، وقبل أن تقول ريّا شيئاً، تابعت لبانة:

- أتعلمين! أشعر بأنّني الآن أخفّ، وأنا حقّاً إذا ما تدبّرت في أمري، أجدني امرأة بلا أحمال، أحلّني الله من كلّ وثاق مع الرجال، وليس لي ما أخشى عليه سوى هذا الصبيّ، وحتّى إن متُّ، فليس ورائي بكّاءات، فلأفعل ما أشاء!
- لكنّك لم تموتي يا لبانة، ولن تعيشي هكذا وحيدة، بلا رجل، وبيت، وذريّة، إنّ الغيظ هو الذي يجعلك تتفوّهين بذلك، وكأنّك وحدك في هذه الدنيا، ولست ابنة إياد السلميّ، ولك ما لك من سند من المال والرجال، وسليمان لن يعتقك، ولن يتركك تفرّين من بين يديه صدّقيني.

كانت ريّا تحدّث لبانة وهي تراها وكأنّها تتخلّق من جديد، وقد ملكت زمام نفسها، مثلما ملكت بحزم أمرها، وخامرها من شأنها ما

خامر، حتّى إنّها غارت منها، إذ حدّثتها نفسها أنّ سعداً لو كان عرف لبانة، لعشقها هي دونها، ودون أيّة امرأة أخرى غيرها، لكنّها ذبّت بسرعة هذا الخاطر عن بالها، وتابعت إنصاتها:

- صحيح أنّني لم أمت يا ريّا، ولكن رأيت من مات قبلي متعلّلاً بالضلالات، لذا أريد أن أحيا وفي يدي زمام قلبي، لا في يد سليمان!

* * *

كانت رائحة رقاق الحنطة المخبوز قد انتشرت في المكان، ممّا أثار شهيّة الجميع، حتّى الأطفال قفلوا من لعبهم، وراحوا يطالبون ريحانة أن تمدّهم بأرغفة الرقاق، إلى أن طلبت الوالدتان منهم التريّث كي تبرد الأرغفة قليلاً، فيتمكّنوا من الإمساك بها. دهنت لبانة كلّ رغيف بالعسل، ورشّت عليه جوزاً مطحوناً وقرفة، فراح الأطفال يتخاطفون الأرغفة، ليعودوا بعد ذلك إلى لعبهم في حبور.

فردت لبانة من الرقاقات خمساً في صحن واسع، وزيّنتها بعناية، وهمّت وريّا بالخروج لإيصالها إلى راهبات الدير. سارت المرأتان عبر البستان، تحفّهما الخضرة من كلّ مكان، ومعها نسائم فراتيّة عذبة، يهيج لها قلب كلّ معنّى، فقالت لبانة:

- وأنت يا ريّا، ألن تحدّثيني عن حالك مع قائد الجند؟!

كانت ريّا تنتظر مثل هذا السؤال، لتبوح بما لم يعد قلبها يحتمل كتمانه، فقالت وهي ترقب قطاة حطّت على غصن تفّاح قريب، وقد كُسر جناحها، فراحت تخفق بالآخر، تريد الطيران:

- حالي حال تلك القطاة، كسر الأولاد جناحها، لكنّها تأبى إلاّ أن تلبّي نداء السماء البعيدة!

- وكيف يكون ذلك يا ريّا؟

- بيني وبين سعد ما يرجوه كلّ عاشقين: الأمانة، والثقة، والإجلال، فضلاً عن الرغبة، بل قولي الوله. سعد رجل طوع بناني، أو لعلّ هذا ما يوحي به إليّ، وأنا كلّما فكّرت في أنّ هذه القوّة والأبّهة يمكن أن تكونا ملكي وحدي، أكاد أفقد عقلي، وأقبل أن أمنحه ما لم تمنحه امرأة لرجل، لكن بيننا أيضاً أكثر ما ينغّص عيش عاشقين، فما ألمّ بنا ليس عاذلاً أو رقيباً، بل مجاري دماء المسلمين، وجيش أمير المؤمنين! أفرأيتِ أقسى من دنياي عليّ! أرأيت قبلي امرأة تبكي حبّ قاتل قومها، تالله لو حدّثنا أحد بحديث امرأة مثلي، لقلنا إنّها امرأة بلا مروءة!

كنتُ أدرك منذ الإشارات الأولى أنّني أزرع شجرة هذا الهوى في تربة اليأس، ومع ذلك سقيتها من ماء القلب قبل ماء العين، أتعلمين لَمَ؟ لأنّ سعداً يجزم أنّنا سنكون يوماً معاً، وهو قوّال فعّال، وهذا الأمل يقضي على يأسي، كيف؟ لا أدري! لذا أجد قلبي ينوس بين الرجاء واليأس مثل رشاء الدلو، يقذفه جانب البئر، فيتلقّفه الآخر، ليقذفه من جديد. وهكذا يمرّ الوقت، والدلو خلو من الماء، بانتظار يد تعدّل مساره، حتّى صرت أقول لنفسي، إن لم أكن معه في هذه الدار، سأكون معه في الدار الأخرى، أليس يُحشر المرء مع من يحبّ يا لبانة؟!

- ويحك يا ريّا، أوصلت بك المواصل إلى هنا، والله لقد فزتِ بالسهم الأخيب!

- إذن آزريني يا أُخيّة، آزريني ولا تعذليني!

قالتها ريّا برجاء وألم، وقد عجبت لبانة ممّا بدا عليها من التوسّل والضعف، إذ ما عرفتها قبل إلاّ فرساً جلوداً نفوراً!

- وما الذي جعلك تكنّين كلّ هذه النار في كانونك، أولا تخشين غدرة ذاك الذي ترهبه أُسد الجزيرة والفرات؟!

- متعبة أنا يا لبانة، وأشعر أنّ الوهن قد عطب روحي، وسيأتي بعد قليل على جسدي، وأنا أجرّ أربعة في يدي، والخامس في بطني. ألا تشتاق المرأة إلى أن ينزرع الوله في قلبها من جديد، فيخفق خفقاته القديمة التي يرتعش لها الجسد كلّه مثل عصفور بلّله القطر! لقد اشتقتُ إلى أن يشوقني البرق، ويبكيني ماء السماء وهو يسقي الأرض. لم أشعر منذ زمن بطلاوة الأشياء، لا في الدار، ولا في السوق، ولا حتّى في الخزف، وسعد قد بسط لي حبل الحبّ على غاربه، وما أجوده من حبل وأمتنه! لم أبادر، منذ زمن، خزفي بالشغف الذي عاد إليّ بقدوم سعد، وما أسعده من قدوم، إذ باتت يداي أطرى، وروحي في الشغل أنقى، فاستعدتُ مهارتي القديمة، بل تجاوزتها، فمنذ أيّام صنّعت مقبض سيف، وغمد، ليس كمثلهما شيء في هذه الديار طرّة!
- مقبض وغمد من خزف!؟
- بل مطعّمان بالخزف، هما من حديد هنديّ، طلبتهما من سارية السّلاّح، وطلبتُ أن يَحفِر على طول الغمد بيتاً من الشعر يقول:

وإنّا العاصمون إذا أُطعنا

وإنّا العازمون إذا عُصينا

وأرسلتُ مكان الحفر عجينة خزفي، وحينما جفّت وتلوّنت بالأزرق، بدا وكأنّ الشعر على المعدن مكتوب بالفيروز، وسمّيت السيف بالبتّار، تيمّناً بسيف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ما أبدعه يا لبانة! ليتك رأيته، والله لولا أن يقول الناس إنّها تسلّح قاتل قومها، لما استحقّ أن يكون سوى مع فارس مثل سعد! لقد سمع به، وذهب فعاينه بيد الرجل الذي اشتراه، وهو رسول والي سمرقند، إذ مرّ الوالي بسوق الرقّة، فأدهشه ما رأى، أتعلمين ما الذي فعله سعد بعدها؟

- بل أعلميني!
- أرسل لي هذه. ومدّت ريّا يدها إلى صدرها، لتخرج صرّة ملفوفة بحرير أبيض، وما أن أخرجتها حتّى هبّت رائحة زكيّة وقويّة، تفوّقت على رائحة الكون من حولهما، ووضعتها بين يدي لبانة، التي توقّفت برهة لمعاينتها. نشرت اللّفافة، فوجدتها وقد طرّز عليها بخيوط القصب، بيت شعر يقول:

تسلّت عمايات[1] الرجال عن الصبا

وليس فؤادي عن هواكِ بمنسلِ[2]

ثمّ طلعت بيدها كرة زرقاء مصمتة، مثل بيضة صغيرة، أمسكتها وراحت تدوّرها بين أصابعها، فتزداد رائحتها زكاوة وقوّة، وتعلق بين يديها، وكأنّها تنزّ زيتاً عطريّاً، ممّا أثار دهشتها.

قالت ريّا: إنّها عجبة، كرة لها مثل هذه الريح، وليست بحُقٍّ ولا نافجة!

- يا لسذاجتك يا ريّا! إنّه قَطْع عنبر أزرق خام.. هذا الشيء ثمين ونادر جدّاً، بل لعلّه أثمن ما يمكن أن يهديه بشر إلى بشر. يا له من موقع ذلك الذي وقعت فيه في قلبه يا صاحبتي! والله كنتُ أتساءل منذ حللتِ، عن سرّ هذا الطيب الذي يفوح منك!

ابتهجت ريّا لكلام لبانة، بعد طول وجل أحدثته لهجة اللّوم والقلق التي قابلتها بها، ثمّ سألت صاحبتها:

- كيف تعرفين ذلك يا لبانة، وماذا سيفعل بي هذا العنبر؟!
- قرأت عنه في كتاب نسخته عن العطور، أيّام كنت هناك في بغداد. لن يفعل بك شيئاً، سيظلّ يطيّبك بهذه الرائحة العجيبة حتّى يعلقك

---

1 غوايات وضلالات.
2 السلوّ: النسيان، وطيب النفس بعد الفراق.

كلّ من مرّ بك. لكنّ العبرة في أصل العنبر يا ريّا، لا في فعلــه، في صعوبة نواله، والمشقّة التي يتحصّل بها، ولا أستغرب أن يقدر مثل ذلك السعد عليها.

- وكيف ذلك؟ سألت ريّا، وقد أعادت الصرّة إلى عبّها، وتابعــت السير.

- يُقال إنّه يتأتّى من قرارة بحر الهند، من عين في قعره، أو أنّه ينبــت هناك مثل فطر، فإذا ما اشتدّ البحر، قذفته الريح بالأمواج مثل قطع الجبال، وقد يبتلعه حوت، فيقتله، ثمّ يشــقّ الصــيّادون بطنــه، يستخرجونه، لاسيّما في بحر الهند أو عُمان، وقد تقذف قطعة إلى الشاطئ، فتقع عليها الديدان وتلتصق بدبقها، فتهوي الطيور على تلك الديدان، منجذبة إلى عنبرها، فإن التصــق الطــائر، وكــان ضعيفاً، لم يقدر على الطيران، فإنّه سيموت لابدّ، وإن كان قويّاً، سيطير بعزم جناحيه، وسيترك المنقار والمخلب ملتَصقين بالعنبر على الشاطئ.

صمتت المرأتان، وكأنّ كلاًّ منهما راحت تتدبّر معنى حالة الطير مع العنبر، و لم تُخفِ ريّا عن لبانة ما حرّكته فيها الحكاية، فقالت:

- ترمين إلى حالي وسعد؟ هل سأكون مثل الطير مع عنبر الشواطئ؟!

ابتسمت لبانة بيأس:

- بل هي حكاية عرفتها، وسُقتها فحسب، لكنّ حكايــات الخلــق تتشابه، وللمُبتلى أن يجد في كلّ قول عِبرة أو سلوة!

-32-

كانت المرأتان قد وصلتا إلى بستان آخر عبر دروب مرصوفة بالحجر، ضيّقة وطويلة، وما أن رفعت ريّا ناظريها نحو التلّة أمامها حتّى استقبلها صرح ضخم من الحجر الأبيض اللاّمع، حيث بناء الدير الرئيس، الذي ما واجهته قبلاً في زياراتها إلى المارستان، حين كانت تعود حسن السعديّ، إذ كانت تأتي من طريق آخر، وتدخل في باب خلفيّ يفضي إلى بناء صغير، ملحق بهذا الصرح العظيم.

دلفت لبانة، وخلفها ريّا، باباً صغيراً بمحاذاة البوّابة الكبيرة، فإذ هما بفناء واسع مستطيل، مرصوف بالحجر الأبيض، وتصطفّ على أضلاعه الثلاثة أبواب، تبدو لغرف واسعة، وفي صدره باب كبير، يقف عند زاويتي الضلع الذي هو عليه بابان مقنطران، تبدو منهما أدراج تفضي إلى فوق. توجّهت لبانة نحو إحدى الغرف على الجانب الأيسر، وإذ بها في مكان واسع أشبه بمطبخ كبير، تتوزّع عليه موائد الرهبان منقورة في الحجر، وفي صدره مصطبة خلفها فسحة يتحرّك فيها الطبّاخون، ومعدّو الطعام، وخلفها كانون وأدوات طبخ، وعلى الجدار فوقها رفوف حجريّة، اصطفّت عليها بعناية الصحون الخشبيّة، والقدور النحاسيّة الكبيرة. أطلّت من وراء المصطبة راهبة مسنّة بمسوحها الأسود، ومعها أخرى كانت تنظّف المكان، فرحّبتا بلبانة ترحيباً حارّاً، قدّمت إليهما طبقها، وتحدّثت معهما قليلاً، ثمّ سألت عن (اشموني)،

فأشارتا إلى أنّها في الكنيسة، تستعدّ للصلاة، ودعتهما الراهبة للالتحاق بالمصلّين هناك.

ضُرب الناقوس، فلبّى نداءه خلق كثيرٌ: رهبان، وراهبات، ومصلّون، وزائرون، وإذ بلبانة تدلف إلى قاعة واسعة، مفروشة أرضها بالبلاط الملوّن، ومسكوكة جدرانها بالحجر الأبيض، وفيها من التصاوير، والتزاويق، والقناديل، ما يخطف الأبصار، ويسلب الألباب، إذ نُقشت في حيطانها صور الأنبياء بأنواع الأصبغة والأدهان، وحُفرت الزخارف، والوجوه، والتماثيل بصنعة وإحكام.

تقدّمت لبانة، وتبعتها ريّا إلى جانب الهيكل، فوجدته مفروشاً بالمرمر، وعجبتْ كيف يمكن للقدم أن تستقرّ عليه، وصورة أمّ المسيح مريم، منتصبة في حائط، وقد جلّت عن المثل، كلّما مال الناظر إلى ناحية، كانت عيناها إليه، تكلؤه بحنوّ عجيب!

لمحت لبانة اشموني إلى جانب الهيكل، تُناول القساوسة والقائمين على الصلاة، أثوابهم وأرديتهم، ثمّ انسحبت إلى مكان قصيّ في طرف القاعة، وأغضت متبتّلة، تستعدّ لصلاتها.

بدأت جوقة من شباب وصبايا، ظهرت في علّيّة على يمين القاعة، باستحضار أنغام هادئة بعيدة، انتقلت منها إلى تراتيل بأصوات سريانيّة شجيّة، لكنّ عيني ريّا لم تفارقا اشموني، لقد أدهشها ذلك الحسن الذي امتلكته الراهبة الصغيرة، فوجهها الأبيض، المحوط بغطاء أسود، مثل كوكب دريّ في عتمة اللّيل، كان يتّقد من غير وقد، فيطغى نوره على نور الشموع وقناديل الزيت من حولها، وعيناها سوداوان جارحتان كعيني مهاة حوراء، وجسدها في مسوحها الطويل صغير وناحل ومتّسق المعالم، وفي عنقها يتدلّى صليب من فضّة كامدة، تلمع عند نقطة تصالبه جوهرة صغيرة حمراء. لم تكن اشموني،

كما بدت لريّا، تشعر بأحد، أو بشيء حولها، كانت منسحبة عن الكون في صلاة عميقة، تنعكس ألقاً على محيّاها الصغير، ثمّ طفقت في حالة بكاء صامت، إذ طلع صوت سماويّ حادّ وساحر، أصغى له كلّ من حوله، حين راحت امرأة تقرأ بالعربيّة في ميمر من ميامر مار أفرام السريانيّ:

"لقد قيّدتْ قلبها لأنّه وقع في الخطيئة،
قيّدته بسلاسل، ودموع الألم،
وراحت تبكي في داخلها:
كنتُ كالقوس في الحربِ، وقتلتُ أبراراً!
كنتُ كالعاصفة في البحر، وأغرقتُ سفن الكثيرين!
أيّها الابن المبارك الذي نزل إلى الأرض
من أجل خلاص الإنسان،
لا تغلق بابك في وجهي...
لأنّك دعوتَني،
وها أنذا قد أتيت
فافتح لي باب رحمتك حتّى أدخل،
ولكي أجد ملجأ فيك من الشرّير...
كنتً عصفوراً، وكان العُقاب يطاردني،
ولكنّي هربت، ووجدتُ لي مأوى في شبكتك
كنتُ عِجْلة صغيرة، وأكل النِّير ظهري،
وسوف ألقي بهمومي إليك.
دعني أضع على كتفيَّ نِيْركَ،
وأسيرُ مع قطيعكَ!"

كان الصوت يصفو أكثر فأكثر، وكانت التضرّعات والدموع

ترتفع معه إلى علّيّين، ومعها دموع لبانة وريّا، لكنّ دموع اشموني كانت الأغزر والأجلّ!

تمّت الصلاة، وريّا مأخوذة بتلك الأبّهة والغرابة من حولها، وبدت حينما خرجت إلى صحن الكنيسة، مثل من انتقل من عالم الراح والأرواح إلى عالم البشر.

جلست المرأتان على مقعد حجريّ تحت شجرة زيتون في حديقة صغيرة ملحقة بباحة الكنيسة، حيث الهواء العليل، واللّيل الذي راح على مهل يتهادى بين ما بقي من ضوء الشفق الأحمر، وشعلات قناديل الزيت التي راحت الراهبات توقدها في كلّ صوب.

قدّمت لهما اشموني شراب الرمّان، وقد بدت مثل غزالة جذلى بصفاء الكون من حولها، محمرّة الأرنبة والوجنتين من أثر بكائها العميق، الذي ترك ناظريها وقد اخضلاّ، مثل حبّتي عنب أسود يأبى أن يفارقهما الندى.

دار حديث الصبايا الثلاث حول العمل، الخزف، والنسخ، وحياكة ثياب الرهبان من الصوف والكتّان، فذلك ما كانت تفعله الراهبة الصغيرة، وقد وعدها ريّا بأن تهدي الكنيسة قناديل خزف من أجود ما تصنع، وأن تخصّها بأبهاها، كي تحوك في نوره الثياب المباركة التي غالباً ما تقضي لياليها مكبّة عليها، حتّى يحين وقت صلاة جوف اللّيل.

لم تستطع ريّا أن تترك اشموني، فتغادر المكان من غير أن تسألها ذلك السؤال، الذي يخطر في بال كلّ من لا ينتمي إلى ذلك الجزء من عالم البِرّ، فقالت:

- ما الذي دعاك لكي تكوني هنا، بلا زوج وولد، فتضنين روحك العذبة، وجسدك الفاتن، بكلّ تلك المكابدات في اللّيل والنهار؟!

لم يكن لدى اشموني سوى الردّ الذي اعتادت قوله لكلّ أولئك الذين يدهشهم حالها، مثلما أدهش ريّا، فقالت بحنوّ بالغ، تزينه ابتسامة شاحبة:

- الزوج والولد كنز ثمين، لكنّني أريد الكنز الذي في السماء، ومن يهلك نفسه من أجل الربّ، لاشكّ سيجدها!

* * *

عند القفول، وجدت ريّا نفسها، وقد غسلت تلك الزيارة أعماقها، خفيفة مثل روح نقيّة، وظلّت صامتة تستقبل رجع الترتيل طوال الطريق، إلى أن خطر لها أن تقول للبانة:

- إنّني أشفق على الراهبة الصغيرة من الوحدة والضنى!

فردّت لبانة بثقة:

- بل هي التي تشفق عليك، وستجدينها الآن تصلّي من أجلك! اشموني يا ريّا أميرة من أميرات عرب مضر في الموصل، قُتل أبواها في معركة من معارك الروم، وأخذت أسيرة إلى القسطنطينيّة، وهناك صارت ربيبة لواحدة من الأميرات، لها زوج من علية القوم، يصغرها بأعوام كثيرة، وليس لهما عيال، وما أن شبّت الفتاة، حتّى علقها الرجل، وراحت شباك الهوى تُغزلُ بينهما.

تولّهت به الفتاة ولهاً عظيماً، وسلبها الحبّ عقلها، مثلما سلبت بفتوّتها وجموحها لبّه، لكنّه بعد ذلك، حاصرها بالمنعة وفاء لزوجته الصالحة البريئة، وإشفاقاً على نفسه وعليها من الإثم، فراح يهرب منها، وهي تلحق به، مستدرّة حبّه وعطفه، حتّى اعتزل الناس وأوى إلى جبل، مقيّداً نفسه بالسلاسل، كي لا يعود إلى تلك الغواية. في ذلك الحين، كانت اشموني قد ثابت إلى رشدها، مشفقة على حبيبها من كلّ تلك المجاهدة، التي جعلتها تغار منه من كثرة غيرته على الله، فأبت أن

يكون ذلك الرومي أعظم في عين الله منها، وأن يكون الله في عينه أجلّ ممّا هو في عينها، فتابت إلى البارئ، وغادرت المكان متنقّلة من قافلة إلى أخرى، حتّى وصلت إلى هنا، إلى هذا الدير، وكرّست نفسها راهبة. في تلك الأثناء، كان الرجل قد خضع لحنينه، فعاد إليها محاولاً أن يجد سبيلاً للبقاء معها، لكنّه لم يجدها. وهكذا راح يبحث عنها من مكان إلى مكان، عابراً البراري، والقفار، والأديرة، حتّى وصل هنا. رأته شموني، وقد حال حاله، مضنىً وبالياً مثل أوراق الخريف، أشفقت عليه كثيراً، وبكت بكاء طويلاً، وصلّت من أجله وما زالت، لكنّها لم تظهر له، ولم يعلمه أحد بوجودها وأحولها، فغادر وترك لها القلب الذي أودعته عالم الملكوت، داعياً له أن يعود إلى زوجته، وأن تطيب نفسه بها، وأن يغفر الله له ولها تلك الشهوات، والدموع، والآلام، التي كانت في غير محبّة الله، وهي تقول دائماً: إنّها بدأت بمحبّة الباطل، وانتهت بمحبّة الحقّ!

- إذن، لذلك كانت تبكي بحرقة، حينما أنشدت المنشدة ميمر المرأة الخاطية!
- نعم، فإنّ القول قد نكأ قرحها.
- هل منحتِ الرجل جسدها!
- لا أدري، لكنّها ترى أنّها شرعت في الخطيئة، وهي تستغفر لذلك الشروع، بل تقول إنّها بعد أن ذاقت لذّة العصمة التي تجدها حظوة إلهيّة، فإنّها حزينة جدّاً لأنّها لم تترك ما للعالم منذ زمن، فتهتمّ بما لله!
- طوبى لها، لقوّتها ونقائها! وتعساً لي ما أذلّني وأضعفني!
- لاسيّما أنّك تسعين إلى رضا رجلين، بدلاً من واحد، زوجك، وحبيبك!

- كفّي عن ذلك يا لبانة، فإنّ عذلك هذا يوجعني أكثر من الـــذنب ذاته!

وابتأست معالم محيّا ريّا حينما تذكّرت حالها:

- لو كنتِ مكاني يا لبانة، لعذرتني، فلعلّك لا تعرفين معنى أن تبغض امرأة رجلها، وهو لاذنب له في ذلك.
- لكنّ حسناً زوجك، رجل ليس كمثله رجل، ولو سمعتكِ نســـاء الرقّة، لدعونك إلى تركه لهنّ، إذ تتمنّاه من المعرورقات الحســـان ألف بدلاً من واحدة!
- ليتهنّ يفعلن! والحبّ والبغض من الله سبحانه، وإنّني والله أدعو ليل نهار أن يثمر حبّه في قلبـــي شجراً وارفاً، لكنّ الأمر ليس بيـــدي، وطوال هذه السنوات كنت أُكره نفسي على عشرته، كما يجبرك الطبيب على العلقم. فما بـــي وقد ظللت صـــادية كـــلّ ذلـــك الوقت، ثمّ وجدت فُرات سعد بين يديّ، ومع ذلك لا أســـتطيع ورده!

أشفقت لبانة على حال ريّا، فلعلّها المرّة الأولى التي تستشعر فيها مرارة أن تبغض امرأة رجلاً، فالنساء طوال الوقت مشغولات بالحـــبّ، لا بالبغض!

- ليتني أستطيع أن أفعل مثل اشموني، أن أهرب إلى الله كما فعلـــت! لكنّني أضعف من أن أفعل.
- لا يا ريّا، لا تلومي نفسك، هذا عندهم، ولا نقدر نحن عليه، لأنّه ليس عندنا، وليس عليك أن تفكّري في ذلك. دعي المُلك يا ريّـــا للمالك، وتذكّري أنْ "فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله لكم فيه خيراً كثيراً"

* * *

لم ينقطع رعد السماء عن دير زكّا تلك اللّيلة، ومع ذلك نامت لبانة طيّبة النفس، وقد بدا لها أنّها حسمت أمرها، إذ قرّرت أن تسلك درب الطمأنينة بعيداً عن عذابات الهوى وضلالات سليمان. وفي حين كان سنا البرق يخطف أبصار الساهرين، عادت اشموني إلى قلاّيتها تتلو صلواتها على بعد فراسخ قليلة من ريّا، التي لم يغمض لها جفن، وكأنّ طرق ودق السماء على أرض الدير الحجريّة المرصوفة أيقظ روحها التي أغضت على كثير من الحيرة والقلق، فظلّت ساهمة، تحدّق من فراشها إلى ما وراء النافذة المطلّة على الكروم، فترى أضواء القلاّيات وقد تناوبت بين اتّقاد وذبول، وفي كلّ منها سرّ دفين، لا يعلمه إلاّ صاحب هذا الملكوت!

-33-

كانت الأيّام تمرّ على نفوس أهل الرقّة ثقيلة ومرّة، وكانت مرارتها على خود أزيد منها عمّا هي عند صاحباتها، ففي حين كنّ يكابدنها جنباً إلى جنب، بين أهلهنّ وأحبّتهنّ، فتهون حوادثها عليهنّ على حدّ قول مثلهم السائر: (الحشر مع الأحبّة عيد)، كانت خود تكابد الأحداث وحيدة، ومهجورة، ومستوحشة، هناك في الرصافة، حيث قرّر عاصم الأشجعيّ أن تبقى نساؤه جنوباً في البادية، ريثما تهدأ أحوال البلاد، فتعود إلى مستقرّها، وإن بدا ذلك المستقرّ غير قريب. فالأحوال تسوء يوماً إثر يوم، وبلاء الفتنة خرج من الصدور، وأوغل في الزرع والضرع، فما أن بلغت سنابل القمح في حقول الجزيرة كاحل الراكب، وركبة الماشي، قبل حصادها بأيّام، حتّى احترقت في حقولها منذرة بشرور المجاعة التي ستطال كلّ حيّ في هذه الديار، التي ما عدمت الخير حتّى في أعتى غضبات السماء. وكانت الفاقَةُ قد انتشرت بين الناس نتيجة عَطَلة السوق، وفوضى الإدارة، واحتجاز مقدّرات البلاد لدعم الجنديّة، وأكثر من هذا وذاك الذعر الذي انتاب العباد، فجعل من لم يرحل منهم، قابعاً في داره، لا يخرج إلاّ طلباً لمعونة أو مؤونة.

كان أهل المدينة يستيقظون كلّ يوم على خبر قتل، وفقد، وتنكيل، حتّى أنّ واحدهم بات ينام ليلاً، ولا يعرف إذا ما قدّر له أن يصبح، هل سيصبح في داره، أم في السجن، أم في الطريق!

ومع ذلك كلّه، كان حبّ حارثة لخود ينمى مع الوقت ويزيد، مثلما يشقّ جدول مجراه في قلب التراب العتيد بصبر وتؤدة، فقد امتلك حارثة من الرويّة والهدوء ما جعله يعرف كيف يستمتع بنزق خود الصغيرة، وعنفوانها، وغرورها أحياناً، فهي لم تكن ليّنة الطبع على الإطلاق، وعلى الرغم من صغرها، استطاعت أن تشكم ما كان يمكن لجرح الهوى أن يطلقه في نفسها من رعونة وأذى، وكانت تملك على حارثة يوماً فيوماً روحه، ببهاء طلعتها، وبمسحة الأسى التي سكنت قسماتها، فأنضجتها على غير أوان، بل أكثر من ذلك، بفروسيّتها الفريدة! ولعلّ ذلك كان الرباط الأوثق الذي جمع بين خود وحارثة، فمثلما تختار الخيل عشّاقها، فإنّها تجعل منهم صفوة، بينها أخلاق مؤتلفة، وأسرار وأحوال، لا يعلمها إلاّ هم.

عُرف حارثة فارساً لا يُشقّ له غبار، وكذلك فروسيّة خود بدأت مبكّرة، فقد تعلّمت الركوب، والقفز، والطراد، من فرسان بني الأشجع، وخلافهم من فرسان البادية، فضلاً عن معرفتها باحتياجات الخيل ومستلزماتها، وأدواتها التي حصّلتها من عمل بني قومها الطويل في تلك الصناعة، إلاّ أنّ حجب عالم الخيل ما تكشّفت لها إلاّ بسبب شغف مخصوص حباها الله به، أذكاه المران الطويل، والعشرة الصافية التي نشأت بين خود وذلك العالم، لذا فإنّ انصرافها في تلك الفترة إلى (نجمة الفرات) فرسها المحبّبة، هو وحده الذي أنقذها في أعقاب كآبتها ووحدتها الطويلة، ولاسيّما أنّها لم تكن بعد قد تيقّنت من كنه الطيف الذي يحوم حولها، طيف حارثة الذي كانت تحتار فيه، إن كان عدوّاً أم وليّاً حميماً!

في ذلك اليوم، طلعت خود إلى تلاع البادية وحدها، وقد امتطت (نجمة الفرات)، فرساً حمدانيّة زرقاء، تبلغ من عمرها سبعة أعوام،

تجاهد معها الخوف الذي يؤجّجه كلّ نذير يقبل من الرقّة، فيُخبّر عن الجديد الذي يزيد الهمّ همّاً، ولا بشير يحمل خبراً عن انفراج الأحوال هناك. آنذاك باغتها جواد عليه فارس يتهادى من بعيد، أقبل عليها بتؤدة، محاولاً ألاّ يفزعها، و لم يكن الفارس سوى حارثة الجهميّ، و لم يك ذاك اللّقاء سوى فاتحة الهوى التي تبدأ بمثلها معظم حكايات العشق والعشّاق.

لم تك خود تستعجل شيئاً، كانت متعبة ومستوحشة، وما كانت بحاجة إلى هوى يعصف بنفسها، بل إلى أنيس يعلّل وحدتها. أمّا حارثة، فلم يكن يريد سوى امرأة مثلها، أصيلة مثل العتيقة التي تركب، وحلوة مثل قطعة سكّر، وبليغة مثل داهية كلام، وفارسة بارعة تتحرّك مثل عاصفة، وساهمة النظرة مثل عرّافة!

حمحم جواد حارثة ما أن صار قبالة خود، وراح يدفع فرسها برقبته، حتّى كادت الأنثى تسير أمامه، فسُرّ حارثة بتصرّف جواده الذي وفّر عليه حرج الكلام وتوطئته، وقال:

- علق الحصان الفرس من النظرة الأولى!
- سر به بعيداً يا حارثة، فالفرس في أوان الهجار قد اعتزلت كلّ ذكر!
- والفارسة؟
- هجار مثلها!
- لها هذا المقدام الأكحل الذي تحتي، فلتعشّريها بمائه يا خود، فهو قويّ، أَنِفٌ، طيّع لصاحبه، غضوب على عدوّه، سأنزل لك عنه اللّحظة، وإن لم تقبليه هديّة خالصة لفروسيّتك، قتلته من حينه!

بوغتت خود بكرم الرجل وسورته، فما كان منها إلاّ أن قالت معتذرة:

- أما علمت يا فارس أنّ النار من المِقباس، والخيل من المِجناس، فقاطعها حارثة:
- والخير بأقدام النساء عربيّات السّاس! يا خود، حمدانيّة وكحيلان، نسبان لا يفضل أحدهما الآخر، فلا تماري في ذلك مراء لا ظاهراً ولا باطناً.

عند ذلك الإصرار، امتلأ قلب خود بغبطة غامرة، ومرّت أمام ناظريها أيّامها وعمر مثل غصّة من الماضي السحيق، وتذكّرت لتوّها أنّ الفارس لا ينظر إلى الخلف قطّ، بل يمضي وناظراه إلى الأمام، يرنو من بين أذنيّ جواده، وخطاه تنهب البرّيّة نهباً، نحو المعلّى من المطامح والرغائب.

في ذلك الحديث، خَطَرَ في بال خود الرجلُ، قارئ النجوم، الذي التقته في الربيع الفائت، هنا في الرصافة، وراحت تتحسّس العقيقة المقدّسة في رقبتها، التي أهداها إيّاها، وهو يُردّدُ: "عليك بالغريب، فالغريب وحده يعرف مكمن روحك من جسدك!"، وانتابها إحساس فريد مثل وحي أُوحي إليها بأنّها أمام الرجل الذي ستبقى معه إلى الأبد.

قضت خود سحابة ذلك اليوم مع حارثة، بين تلال البادية، يتجوّلان في المطالع والمنازل كلّها، بعيداً عن أعين البشر. حكت له كلّ ما رغبت في أن تحكيه عن نفسها طوال السنين، وأطلعته على ما تهجس به، وتخاف منه، حاضراً ومستقبلاً، وقد أرادت أن تستخرج من قلبه كلّ ما يمكن أن يطمئنها على نفسها، وقومها، ووطنها. ولم يتردّد هو في أن يمنحها ما تريد وأَزْيد، كذّب لها الشائعات المرهبة، وكشف لها عن الحقائق التي تؤكّد على أنّه مع أهلها ومنهم، وأنّه لم يأت إلاّ للحفاظ على أمنهم، وعرضهم، ومالهم، وأنْ ليس له غاية سوى نصر دين الله، وحفظ دماء عباده، وأنّ الفتنة منقضية لابدّ، إذا ما كانوا يداً واحدة ضدّ من يتلاعب بأهواء الناس، طالباً ولايةً ليس إلاّ، وهم قد اكتشفوا الأيادي الجانية، وهي الآن في محيط

سيطرهم، وأنّه سيحزن حزناً جمّاً، إذا كانت خود ما تزال تخشى شيئاً وهي تحت جناحه، وفي قلبه:

- والله يا حارثة، ليس ثمّة من نخشاه سوى ما خشيته العرب من قبلنا: ذلّة بعد عزّة!
- لا ذلّة إلاّ لمن أراد اللهُ أن يذلّه، ومن أراد الله عزّته، فلا ذالّ له، ولن يحيق بنا الذلّ إلاّ بما يفعله الرهط من قومك، من استعانتِهم باليد الغريبة!
- من منّا فعل ذلك؟!
- بنو الأزرق، استنجدوا بالروم، ومَدَدُهم قادم إليهم في الطريق، من الشمال.
- فئران تستأسد، وهم ليسوا عند الله من أَحَدِ!
- لكنّهم يفعلون، وسيجلبون عامّة البلاء لتكون حرباً عظيمة، يطول أوارها الشام والعراق، أفلا تحقّ علينا حربهم يا خود!

أطرقت البنيّة، وراحت تفكّر في تقاطعات الأحداث التي كانت قبل هذه الساعة تجهل معظمها، فبادرها حارثة مطَمْئِناً:

- أريدك أن تأمني يا حبيبتي، فأنت مع حارثة الجهميّ، الذي لن ينتظر هدوء الحال، ليأتي دار أبيك خاطباً، فهل ما زلتِ في شكّ من هواي لك، ورغبتي فيك!

في ذلك اليوم، قَرّتْ بلابلُ خود، وقد تكشّف لها من أسرار الهوى، ما غاب عنها دهراً لقد أدركت أنّ له مذاهب مختلفة، وأنّ الألفة الناجمة عن طول العشرة ليس الشرط الأوحد لتنعقد حبال المودّة بين اثنين، بل إنّ لقاء واحداً لكفيل بعقدها إلى الأبد. وهكذا أوت إلى ظلّ حارثة، مثلما يتدفّأ المقرور، ويأمن الخائف، ويسكن المضطرب، فوجدت الروحُ منها مستقرّاً هانئاً، بعد تيه طويل.

-34-

استيقظ أهل الرقّة في ذلك الصباح البارد المتجهّم على مشهد مريع! كان الخبر قد انتشر عن أربع جثث لفتيات عاريات، وجدت طافية على وجه النهر، بعد أن تمّ إيذاؤها بقسوة. لم يتمكّن الجند الذين طوّقوا المكان من إيقاف تدافع الناس الذين قدموا حانقين، مروَّعين، وهم يشهدون أعراضهم تنتهك بين ظهرانيهم، وأمام أعينهم. وسرت الشائعات في المدينة بأنّ الجند هم الذين اختطفوا الفتيات، فاغتصبوهنّ، ورموهنّ في النهر، على علم من قائدهم سعد، بل بأمر منه، وما ذاك إلاّ رسالة لأهل الرقّة، وكسر لشوكة من يعارض منهم رغبات والي الخليفة وقائد جيشه، وردّاً على تعنّت المتآمرين الذين يخبّئون مصحف فاطمة، أو يتستّرون على مكان وجوده.

لقد حوّلت تلك الرسالة العنيفة حنق الناس وذهولهم إلى سَوْرة عارمة، جعلتهم يندّدون بالوالي، وبقائد الجند، بل بالخليفة ذاته، فراح خطباء المساجد يدعون عليه في كلّ صلاة. وأضرب الناس عن أعمالهم، وأعلنوا نصرتهم للخارجين على الجيش، ولمن يعارضون حكم الوالي، ولم يفلح كبارهم وعقلاؤهم بتهدئة ثورتهم، وشرح تفاصيل الأمور التي يكتنفها زيف شديد، وتحيق بها أذرع سوداء لفتنة تجعل الجند وقائدهم في عين المؤامرة، ومحاولة إقناعهم بأنّ طالبي السلطة والولاية أرادوا من ذلك الإيقاع بين العامّة، وبين من ينافح عن أرواحهم، وأعراضهم،

وأموالهم. وبالطبع لم يصدّق الناس سوى غضبتهم المتأجّجة، وانقلبوا على كلّ من ينبس ببنت شفة تشير إلى أنّ وراء ما حصل جهة أخرى، غير سعد وجنوده.

لم يفلح مالك الأشجعيّ في تخفيف جذوة هذه النار المتّقدة، وما أمكنه في أوار سقرها أن يحمي سعداً أو يدافع عنه، فقرّر أن يداري الأمر بأقلّ الخسائر، فيعلن أنّه مع القوم وفي جانبهم، كسباً لرضى الثائرين، ريثما تتضح الأمور، وتهدأ النفوس، وينكشف الجناة ومَن وراءهم. لكنّ سياسته تلك شدّت وتر العلاقة بينه وبين أهل القصر حتّى كاد ينقطع، ولم يقتنع سعد بما صدر عن الأشجعيين من نقض لعهود المؤازرة والتفاهم، إذ عميت بصيرته بدخان الشرّ الذي نفثه أهل الرقّة من صدورهم، فدار على ألسنتهم وأياديهم، وها هم باتوا يقنصون جنده، ويحرقون مخازن مؤونته وسلاحه، في حين أمسى مدد أعدائه من بلاد الروم، قاب قوسين أو أدنى من الرقّة.

ضاق سعد ذرعاً بالطعنات الكثيرة التي وجّهت إليه، فهو ما أن نال ثقة أهل المكان، حتّى فقدها من جديد، وها هو يخسر الآن نصرة الأشجعيين وغيرهم من ذوي الجاه في الرقّة وما حولها، لكنّ أكثر ما كان يستفزّه هو صدّ ريّا وغيابها، وكأنّها هي الأخرى قد صدّقت من أمره وأمر جنده ما سرى من أقاويل مغرضة. وفي الحقيقة، أعرضت ريّا عن سعد خوفاً ممّا يجري، وتحسّباً لما ستصير إليه الأمور، ودرءاً لغضبة أهلها والناس، وأكثر من هذا وذاك أنّ الشكّ خامر نفسها من أمر سعد، إذ راحت تستعيد في حميّا الأحداث، ما يُقال في كلّ زمان ومكان عن جرائر العسكر، وعن أنّ الجند لا حرمة لهم، ولا عهد، فاحتجبت عن سعد، ولاذت بدارها، بعيداً عن الأعين والألسنة، مثقلة بالغمّ والحيرة حول حقيقة الرجل الذي عشقته، وأمّنت له، أهو ذاك

النبيل الرؤوف الذي قضت معه أسعد ساعاتها، أم هو ذاك الفتّاك المجرم، الذي سوّلت له نفسه أن يستبيح حرمات النساء وأجسادهنّ! ولعلّ ما كان يفطر روحها أنّ العشق قد بلغ بينهما مبالغ لم تكن في حسبانها، إذ بات سعد في الأيّام الأخيرة الأقرب إلى نفسها، بعد أن وجدت فيه الأب، والأخ، والحبيب، بل كانت تحسبه أحياناً ولداً من أولادها. ولم يدّخر هو عاطفة من حلو العواطف إلاّ وأغدقها عليها بسخاء، أولاها رعايته التامّة، ودلّلها دلالاً لم تذق جزءه في حياتها، حتّى قرّرت أن تدع له أمرها كلّه، كما طلب منها، وأبدت استعدادها لمفارقة الزوج والأهل، لتصفو لها الحياة معه. وكان بدوره يعدّ ما تبقّى من أيّام لولادتها، مثلما كان يعدّ الأيّام التي ستنقضي بها الفتنة في الرقّة، ويمنّي نفسه بأن تصير ريّا إليه بروحها وجسدها، الذي ما فتئ يرعاه مثل جوهرة ثمينة، يحتضنه برقّة، ويداعب الشعر المائج، والبشرة المشدودة، والبطن المتكوّرة التي طالما تمنّى أن يكون حملها من مائه هو. وكانت ريّا في لقاءاتهما المتكرّرة في استراحته تستسلم إلى حضنه مطمئنّة وراغبة، ومستزيدة من لمساته الدافئة، التي تستثير رحمها، فينقبض وينبسط، حتّى لتشتهي من النشوة، أن تضع مولودها بين يديه!

لكنّ الأيّام تضنّ بما تفيض به الأحلام، إذ قطعت الحوادث الأخيرة الطريق، لا على اللّقاء فحسب، بل على الأماني التي في القلب أيضاً. ولم تفلح محاولات سعد المتكرّرة في لقاء ريّا، بل حتّى في إيصال كتاب إليها، ذلك أنّ ماجريات الأحداث لم تترك له سانحة يعالج فيها شأنه معها. وهذا التشكّك بالذات هو ما أثار جنونه، وأيقظ وحش الإباء في داخله، وقد فوجئ بتخلّي حبيبته التي لم تعرف كيف تساند الرجل الذي أحبّته، ولم تحافظ على قلبه من الصدع، وعلى عقله من جنون الغضب، فكان انسحابها السهم الأخير في كنانة الودّ بينهما.

كانت أحداث القتل والتنكيل تشيع في كلّ مكان، و لم تعد الرقّة المدينة البهيّة التي كانت، فالفوضى تنثر قسماتها في تفاصيل حياة الناس أجمعين، والموت يتربّص بهم في كلّ درب من الدروب، وراحت الفاقة تلقي بظلالها على النفوس، ناشرة الشحّاذين، والمجرمين، والمرضى. وحتّى الأصحّاء منهم تراهم سكارى، وما هم بسكارى، ولكنّ ما حلّ بهم وطؤه شديد، حتّى ليكره المرء أن يمشي في الشوارع ذاتها التي كانت، من قبل، تزخر بألوان البهجة والعطاء. ومع ذلك عزمت ريّا ذلك اليوم على أن تذهب إلى حانوتها، مثلها مثل أولئك الذين يطلعون إلى السوق مقاومين الموت، جاهدين في أن يعيدوا الرقّة إلى سالف عهدها.

فتحت الحانوت، وصفّت بضاعتها، وهي ترنو إلى الأشياء من حولها، فتراها صفراء مقيتة، حتّى السماء بدت يومذاك متجهّمة، تحجب شمسَها غيومٌ تكذب وعدها كلّ يوم، ولا تبعث سوى ببرد مسنون يقصّ الوتد. أشعلت الكانون، تقاوم بناره رائحة الهجر في المكان، والتي أذكاها فقد (حرز) المؤنس والمعين، والذي وجد في واحد من هذه الصباحات مذبوحاً على باب الحانوت، وإذ بهرج ومرج يعمّ السوق، بدأ الناس معه يتراكضون، ويسارعون إلى إغلاق أبواب دكاكينهم، وقد طوى أصحاب السلال والبسطات القليلة أشياءهم على وَجَل.

لم يسعف الفزع ريّا على أن تفعل شيئاً، لذا وقفت أمام حانوتها تشهد ما يحدث فحسب، حينما اجتاح سرب خيّالة الطريق مثل زوبعة أخذت كلّ ما صادفته، وزرعت الرهبة حولها، وكادت ريّا أن تدرك أجلها وهي ترى في الطليعة فارساً ملثّماً لن تنكره حتّى تنكر الروح الجسد الذي تحلّ فيه. كان سعد يتقدّم الطراد مثل سهم من لهب،

أشعله غيظ لا رادّ لأواره، فلم تتدارك نفسها وريح الخيل تكاد تخطف جسدها الثقيل، فتهاوت بينما الفارس يندفع، ووراءه جنده، باتجاه الحانوت، مخترقاً بلمح البصر بضاعتها المصفوفة أمام الباب، وحينما أدركت الواقعة، كان الخزف قد تناثر مثل أشلاء، راحت الخيل تدوسها بلا رحمة! ومضى السرب، من غير أن يلتفت أحد إلى ذهول ريّا وأوجاعها، وهي ترقب الخزف الذي أفنت روحها وزمانها في شغله، يفنى بسنابك خيل آخر رجل أمكنها أن تحبّه إلى الأبد!

مكتبة
t.me/soramnqraa

-35-

كان وجود عمر إلى جانب لبانة قد أعاها كثيراً على التأسّي، إذ كان يتردّد عليها في حانوتها، يحدّثها، يرى متطلّباتها، يفتح لها قلبه، وتفتح له قلبها، لكنّها كانت دائماً تتوقّف عند الحدّ الذي كان وراءه مُلك سليمان على قلبها. لقد أدركت لبانة تماماً، ومنذ أيّامها الأولى في الرقّة، أنّ عمر هو الرجل الذي يمكن لها أن تضحك معه، وأن تبكي معه، وفي لحظة ما، قد تشتهي فتوّته، وتوقّد شبابه، لكنّها لن تكون له، لأنّها لا تحبّه كما تحبّ المرأة الرجل، وهي لا تريد أن تقسر نفسها على المضيّ في درب ما، لأنّها مدينة لأحد بشيء، أيّاً كان ذلك الشيء، فهي على دراية بأنّها ستندم وستؤذي أكثر من كونها ستردّ جميلاً، ثمّ إنّ العشق يكفّ عن أن يكون عشقاً إذا صاحبته شفقة أو معروف.

لم ييأس عمر من محاولاته في أن يلين جانب لبانة نحوه، بكلامه، وأفعاله، وسعيه عليها وعلى قيس، ولم يكن يصغي في ذلك لقول عاذل أو لكلام لائم، على الرغم من أنّه يعرف في قرارة نفسه أنّ الدائر بينهما شيء، وأنّ ما تخفيه الصدور شيء آخر.

كان يقنع منها بكلامها، بتقبيل يديها، باحتضانهما، ممرّغاً وجهه فيهما، يشمّ ريحهما مثلما يفعل طفل اشتاق ريح أمّه. وكان ذلك يشقيها كثيراً، لا سيّما حينما تسمع منه الكلام الذي ما سمعته في حياتها: "لبانة، لو استطعتُ لشققتُ صدري بمدية، وناولتك القلب،

تحفظينه بين يديك من الضيم! لا تردّيه، فلا حاجة لي به إلاّ أن يكون لك ومعك، لكنّك تمنعين وتمنعين، ولا عتب! فوالله إنّي أحبّ منك المنع، كما أحبّ العطاء، المهمّ عندي أن يبقى بيننا سبب، أيّاً كان السبب، فإن تقطّعت الأسباب، فاندبيني يا لبانة، فليس لي بكّاءات غيرك، ولا عيش لي في الدنيا بعدك!".

كانت لبانة تدفع غيّ عمر بلطف حيناً، وبعنف حيناً آخر، وكان يقتلها بقوله وبتضرّعه، حتّى قرّرت أن تنجو من ذلك كلّه نائية بنفسها وولدها عن حكايات الهوى التي أتعبت قلبها، فهي لم ترغب يوماً في أن يكون عمر بديلاً لسليمان الذي قطعت حبل أملها معه على الرغم من ذلك الحبّ العاصف كلّه، وما يبدو من أفق مرسوم للعودة، لقد أخرجت سليمان من قلبها، والذي يخرج من القلب، لا يدخله ثانية!

* * *

مع الأحداث الأخيرة التي حلّت بالرقّة، أغلقت لبانة حانوتها، وتأهّبت لتطلع إلى الدير، حيث ستقيم إلى الأجل الذي ستهدأ فيه أمور البلاد، وتنقشع غمّتها عن حال مبين. صاقب يومها الأخير هبّة حرّ من هبّات أواخر الصيف، وكان قيس قد طلب إليها مراراً الذهاب إلى الفرات للسباحة مع صحبه واللّعب، وكانت تأبى في كلّ مرّة متعلّلة بالعمل المتراكم، لأنّهما في الخروج إلى الفرات لابدّ من أن يكونا معاً.

في ذلك اليوم، وقبل الرحيل، استجابت لبانة لتوسّلات قيس، ومضت معه على مضض. لم تعد الرقّة كما كانت بهجة للناظرين، ذبل ليلكها، وجثمت الكآبة على زرعها وعمرانها، وخلت الدروب الموصلة إلى الفرات من أُنس العشّاق والمتنزّهين، مثلما خلت المقاصف والمطاعم من صخب اللاّهين، وبدا الفرات أيضاً حزيناً وكامداً، وكأنّ

الأسن قد حلّ بمائه، فعكّره. وبينما كانت لبانة تهيم مع أفكارها وتحنّ إلى ما فات، تفقّدت قيساً الذي كان يلعب مع الصغار، فلم تجده، غاب قلبها، وراحت تمحّص عن رأسه بين رؤوس السابحين، وإذ بهم يتحلّقون حول الماء في حيص بيص، يحاولون إغاثة جسد لفّته دوّامة نهريّة، بلا جدوى، إذ راحت الدوّامة تدور به وتدور، ولم يكن من الناس الذين هبّوا للنجدة من يستطيع اقتحام دوّامات الفرات الغدّارة.

كانت لبانة قد أحجمت عن الخوض في الماء، وقفت على حصى الشاطئ ثابتة، ترقب قيساً يختفي عن عينيها إلى الأبد، وروح الثكل تتلبّسها على مهل. اختزنت صورة غرقه لحظة فلحظة، ثمّ مضت في طريقها، لأنّها تعلم أنّ الفرات لا يعيد أجساد الغرقى.

انتهت الأيّام بلبانة هناك، في دار أبيها في دير زكّا، مع الحزن السحيق الذي يتجدّد كلّما استبطنت مشاعر صغيرها الفقيد في لحظات غرقه، كانت تسأله: يا ولدي، أتراك استنجدت بي، ولم أنجدك؟ ناديتني وما سمعتك؟ تشبّثت بصورتي، ولم أتشبّث بك؟ وكيف خرجت روحك؟ مطمئنّة هادئة، أم ضاجّة قلقة...؟

بقيت لبانة مقيمة مع أسئلتها وآلامها، وكانت ريّا تتردّد إليها كلّما استطاعت، وقد وضعت مولودها، وعادت قريرة العين إلى كنف زوجها وأولادها، تحمد ربّها صباح مساء على أنّها نجت من غيّها. كانت تجالس لبانة بالأيّام، تشدّ أزرها، وتوقد في قلبها جذوة الصبر كلّما عملت الذُكرات على إخمادها:

- يا لبانة، استعصمي بحبل الله يا لبانة، لن أقول لك اطرحي ثوب الحزن عنك، فصدع كبدك يا أخيّة، لا ينجبر إلى الأبد، لكن ارفقي بنفسكِ، وبشبابك، فالحزن والله يورث السقم، ومازال دربك طويلاً، وعليك البدء من جديد.

كانت لبانة قلّما تخرج من صمتها إلاّ إلى النواح أو التعلّل بـــذكر قيس، وأفعاله، وأقواله، وشيطناته. لقد ناءت أكثر ما ناءت بفكرة البدء من جديد:

- لم يعد قلبـــي يحتمل البدايات الجديدة يا ريّا، لقد تعبت، تعبـــت، وأضنتني النوائب، كلّما بدأت ومضيت، أجدني أمام نهاية. كم مرّة على المرء أن يبدأ في حياته، كم!؟

خود أيضاً ما فارقت لبانة في محنتها، وكأنّ ما ألمّ بالرقّة وأهلـــها قد صالح بين المتنافرين من كلّ ملّة. كان حارثة قد تـــرك العمـــل في الجيش، اشترى أرضاً صغيرة في الجهة الشاميّة من الرقّة، وراح يعمل في زراعتها، يؤازره جاه خود وأبيها، وكان بذلك الخروج على سنن أهل الجنديّة قد قصم ظهر سعد، صاحبه وقائده.

كلّما صحت لبانة من نوبة حزن، قالت لصويحباتها: كنت أتمنّـــى لو أنّ بركة أخرى، غير بركة الجراح هي الـــتي لفّتنـــا حولهـــا! ولأنّ المصائب لا تأتي فرادى، فقد فقدت لبانة والدها إياد السلميّ على حين غرّة، وزادت بذلك الفقد حزناً على حزن، وثكلاً على ثكل، وصارت أشبه بجرح مقيم في دير زكّا.

الأحداث الكثيرة المؤلمة التي مرّت، جعلت من تلك الشهور دهراً، وخلال ذلك الوقت كلّه، لم يؤب سليمان، ولم يُسمع عنه خبر، وإنّـــه لو عاد، فهو بالكاد سيعرف لبانة بعد أن حلّ بها ما حلّ.

لم تكفّ ريّا عن أن تمنّي صاحبتها بعودة سليمان إليها، بل تجـــزم بأنّهما سيكونان معاً، وسيكون لهما بيت جديد وأولاد كثر، لكنّ لبانة تعلم في قرارة نفسها أنّ شيئاً من ذلك لن يحدث، فسليمان دائماً يـــأتي في غير وقته، والأَولى أن تصرف ما بقي لديها من حسرات على حالها لا عليه، وهي اليوم بعد أن تلقّت سهام الدهر وحدها، وبلا ســـليمان

درعاً، لم تعد تحفل بوجوده في هذا العالم، على الرغم من أنّه حين فارقها شعرت بوحشة قد ألّمت بالدنيا، وهي لا تنكر أنّها في خضمّ نكبتها كانت تصبو إلى أن يكون بقربها، يضمّد جراحاتها، ويكون لها عزاء جميلاً:

- الوحدة علقم يا لبانة، وهي أمرُّ لامرأة في مثل عمرك، وقد مرّ عليها ذلك الفقد كلّه!
- لا تعنيني الوحدة، فلا بدّ من أن يبقى أحد ما وحيداً في النهاية، وأنا أنجزتُ ما عليّ، ذهب أبي، وهو أصلي، وذهب ولدي، وهو فرعي، فما بقائي!

فكّرت ريّا برهة في قول لبانة: امرأة لّما تصل عقدها الثالث، وقد عرفت اليتم، والثكل، والهجر!

- اصبري على مصابك يا لبانة، فإذا صبرتِ، جرى عليك القضاء وأنت مأجورة، وإذا جزعتِ جرى عليك القضاء وأنت مأزورة!

بعد كلّ حديث من هذا القبيل، لم يكن من لبانة سوى أن تغضي على دموعها وحسرتها، فيلهج لسانها بالاستغفار، في حين تبقى عيناها معلّقتين في السماء، تلاحقان صور أحبّتها الذين فقدتهم على عجل.

-36-

كانت ريحانة من جملة الراحلين الذين ظعنوا من الرقّة بعدما حلّ بها ما حلّ من فتنة وخراب. هربت مع حامد الصيّاد، وظّلت عينها عبرى على حال سيّدها، لكن لم يكن بيدها حيلة سوى تلك الحيلة لبداية جديدة. وكانت لبانة قد شعرت بما تدبّر له ريحانة من أمر خروجها، لكنّها أغضت عن ذلك، فلتذهب ريحانة، ولتأخذ ما تشاء من مال ومتاع، فلم تعد الأشياء تدعو للتمسّك بها، و لم يعد العيش يغري مع أحد.

وبغياب ريحانة، صارت أيّام لبانة طويلة، ولياليها أطول، وصارت وحيدة، تفزع من كلّ حركة تنتاب الكون من حولها، لاسيّما بعد أن انفضّ الناس من حولها: إخوتها، ونساؤهم، وصويحباتها، ملتفتين إلى دنياهم وأحوالهم.

في ليلة من ليالي الوحدة تلك، سمعت لبانة حركة طارئة حول الدار، وكان ليلُ أوّلِ الشتاء ساكناً، والسماء أشبه ببحر أحمر يجاور الأرض، والبرد مثل ناب وحش يعضّ الأجساد، ففزعت لذلك الاضطراب القريب، وتحصّنت بنافذتها، فقد يكون حيواناً، وحشاً ربّما، لكن بعد وهلة، لمع تحت ضوء المحاق المحمرّ رأس لرجل يتحرّك بين العشب، يحاول افتراش الأرض! سكنت لبانة، لا تدري: أتصيح، أم تسأله عن غايته؟ أم تخرج إليه، وتطرده، أم تتركه!؟ وما الذي يفعله الرجل في دارها؟ أتراه عابر سبيل أم معتدياً أثيماً؟!

ركن الرجل بين العشب، عند السور الواطئ، وغطّى جسده بعباءة، وتأهّب للنوم، عند ذلك شقّت لبانة شبّاكها، وصاحت غير آبهة بشيء:

- من؟!

فانتفض الرجل:

- عبد الرحمن يا سيّدتي.

قالها، وهو يقترب، فتتبيّن ملامحه في ما ترسله السماء من ضوء هنا وهناك: رجل لم ينه عقده الرابع ربّما، غريب الهيئة واللّهجة، فشكله ليس من أشكال أهل الشام أو العراق، وكذلك ثيابه، سرواله أبيض يعلوه ثوب قصير يصل ركبته، وفوقه سترة من فرو وحش، لفّها بحزام جلديّ. كان الرجل وسيماً، يفيض وجهه بسماحة، وقد غزا الشيب إبر شعره القصير. توقّف على بعد ذراعين ربّما من النافذة:

- لا تجزعي منّي يا سيّدتي، فلست أحمل سوى الخير والله، لقد شقيت في سفري، وأريد أن أرتاح إلى الصباح فحسب. لن أطيل عليك، جئتُ من بغداد، وتقطّعت بي السبل، حتّى اهتديت إلى حديقتك. أريد أن أرقد الساعة، وأرجو أن تسمحي لي بذلك، وغداً، سأحكي لك حكايتي، وأغادر.

* * *

نامت لبانة ليلتها على قلق، وحينما أصبحت، ألقت نظرة من النافذة على حديقتها، حيث بات الغريب ليلته، فلم تجده، وخمّنت أنّه رحل. لكن بعد وقت قصير، وجدته ببابها، حليقاً، مغتسلاً، بحلّة نظيفة، وتفوح منه رائحة بهار نفّاذة ومحبّبة. ألقى عليها التحيّة، وشكرها بلطف جمّ، مفارقٍ لطريقة أهل المكان في مجاملة أو تعبير عن امتنان.

جلست لبانة معه على المصطبة أمام باب الدار، وقدّمت له حليباً طازجاً مغليّاً، وصحيفة فيها زبدة وعسل أسود وخبز ذرة، تلقّفها الغريب بلهفة، وما أن أنهى طعامه، حتّى بدأ يحكي قصّته.

عبد الرحمن الباجيّ الطبرقيّ، تاجر من بلاد إفريقيّة، تقيم وراء البحر الكبير، اسمها تونس. جاء في رحلة تجاريّة منذ ما يزيد على حجّتين، وأقام في بغداد، حيث باع تجارته من صنوف الحبوب والورق، واشترى النسيج والعطور والكتب، وريثما تصل قافلته إلى البحر عند ميناء صور، عزم على أن يطوف في هذه البقاع، علّه يجد ما يمكن له أن يحمله من تحف وغرائب، فيعود بها إلى دياره موفوراً محبوراً.

وصل عبد الرحمن بطاح الرقّة حين كان اللّيل قد أخنى على الدنيا، فلم يجد أمامه سوى دار لبانة، فاستأنس في الظلمة بضوء قنديل كان يرسل نوراً شحيحاً من خلف الزجاج، وافترش أرض الحديقة إلى الصباح، حيث سينزل إلى الرقّة، يقضي حوائجه، ثمّ يأخذ طريق الماء مع قوم ينتظرونه عند (بالس)[1]، ثمّ إلى (حلب)، فـ (اللاّذقيّة)، فـ (صور).

كان عبد الرحمن يحكي عن رحلته، ومع كلّ جملة كانت لبانة تستعيد الأنس الذي افتقدته طويلاً، تزجي همومها وآلامها بالإصغاء إلى لهجته الغريبة، وحكاياته الجديدة. حينما أنهى عبد الرحمن كلامه، وضع في يد لبانة لفافة صغيرة، فتحتها، وإذ بها منديل من حرير أرجوانيّ، مطرّز بخيوط القصب الأصفر، وأردف:

- لا أحمل معي الكثير يا سيّدتي، لكن أحبّ أن أذكّرك بامتناني لك فحسب! دلّيني أين يمكنني أن أبيت اللّيلة هنا أو في الرقّة؟

---

1 مدينة مسكنة الحاليّة، بين الرقّة وحلب.

فكّرت لبانة هنيهة، ثمّ وجدت نفسها تقول:

- يمكنك البقاء هنا، تنام في ملحق الضيوف، المكان دافئ وآمن، وحال البلاد لا تشجّع على أن يتجوّل الغرباء فيها طويلاً!

تردّد عبد الرحمن قبل أن يسأل:

- وأين هم أهل الدار؟

قالت بأسى:

- رحلوا جميعاً!

* * *

ذهب عبد الرحمن ليجول في المكان، نزل إلى الرقّة، جاب أسواقها، تعرّف إلى ناسها وأحوالها، وعندما هبط المساء، كان قد عاد إلى حيث لبانة، التي كانت قد شعرت منذ لقياه في الصباح، بأنّ يداً خفيّة تحاول إخراجها ممّا هي فيه، فتأخذها إلى عالم جديد، كانت قد نسيت، أو ربّما جهلت أنّه قائم في هذه الدنيا.

أعدّت طعاماً لضيفها، خبّيزة مؤدّمة بزيت الزيتون، وشيئاً من لحم ضأن مشويّ جاءت به من شوّاء في السوق.

طلب عبد الرحمن إليها أن يقضي ليلته تحت الجوسق في الحديقة، فهو قد أحبّ هواء هذه البلاد ونارها، وأحبّ أن يتلقّى جسده برد اللّيل والنار مشتعلة إلى جواره، وبدأ يجمّع الحطب في نُقرة تحت الجوسق محفورة لتلك الغاية، ثمّ أوقد النار، فأعادت رائحة خشب الزيتون المشتعل ألفة الحياة للبانة، بعد أن ظنّت أنّها خبت، وخبا معها كلّ شعور بالسلام.

تناولا الطعام معاً، وكان كلّ منهما ينظر إلى الآخر خلسة وعلى وجل. سألته:

- كيف وجدتَ بلادنا؟

- لابدّ من أنّها كانت جنّة الله على الأرض، قبل أن تنبثّ نُذُرُ الموت منها في كلّ مكان!
- وبلادك؟
- أصلي من باجة التونسيّة، حيث سنابل القمح تبلغ طول الرجُل، ولكنّني أقيم منذ أعوام في طبرق، على نحر بحر المغرب، ناحية البرّ البربريّ، إنّها بلاد مغسولة بالماء، فيها بحر ونهر، وعامرة بالتجارة.

كان عبد الرحمن يصف دياره، ولبانة تمتلئ حسرات على ديارها، وتتمنّى لو أنّ الرجل قد رأى الرقّة قبل عام فقط، أيّام أمانها، وعمارها، وأُنسها، وعطائها.

- إذن، لن يغريك ماؤنا بشيء؟!
- بحركم صغير، ولاسمك فيه، وبحرنا قاموس، وفيه من مخلوقات الله العجب العُجاب، غلال كثيرة، طعام، وجواهر، ودواء... ثمّ لمعت عيناه الداكنتان ببريق مدهش، وبان محيّاه عن شخص رجل خبير، وثابت، ومكتفٍ عن كلّ شيء في الدنيا بمروءته، وقال:
- أصدقك القول: لعلّها المرّة الأولى التي أرى فيها، رغم ما رأيت، غزلاناً لها لسان عربيّ مبين!

قالها، وظلّ يحدّق بلبانة حتّى ارتعشت، وعادت جذوة ألقها القديم إلى التوقّد.

رفعت الطعام، وأتت للرجل بفراش ولحاف، بينما كان يذكي النار، ويلهب جمراتها بملقط معدنيّ بين يديه. وسّع لها بجواره، فجلست وهي تشعر أنّها خارج زمانها ومكانها. لم تأبه لوجود شيء، أو لقدوم أحد، إذ غمرتها غبطة ليس كمثلها شيء، وراحت تسأل نفسها: كيف لها أن تبني عمراناً من الألفة بين ليلة وفَلَقها، ومع شخص غريب عنها في كلّ شيء، وليس بينها وبينه من صلة سوى صلة الآدميّة! ووجدت

الجواب سريعاً: من الأفضل أن تكون مع شخص لا تعرف عنه الكثير، وتركن إلى شعورك بأنّك تطمئنّ إليه فحسب!

كانت، في ذلك، تحدّق في السماء، فوجدتها منقوشة بنجوم أكثر من أيّة مرّة رأتها في حياتها، وكان الأفق أمامها حالكاً، تكاد تلال الرقّة لا تبين في دهمائه، واختلط عليها المشهد بين الأرض، والسماء، والأفق، واللّيل البهيم الذي تضيع تفاصيله بين عواء الضباع البعيدة، وطقطقة الخشب يستقبل الشرر، ورائحة خشب الزيتون المحترق، والرطوبة من حوله... فكادت لبانة تذوب في هذه اللّحظة التي لا يمكنها تحديد ماهيّتها، فانتابها دوار محبّب، ومالت، والتقطها الرجل الجالس إلى جانبها، واحتضنها بقوّة، فألوت عليه بكلّها وبأثقالها، وبقي عبد الرحمن محتضناً إيّاها وقتاً لا تدري كم كان، لا تسمع فيه سوى وجيبه ووجيبها، وكلّما أرادت أن تبتعد، كان يشدّها إليه أكثر، ويعيد جذعها إلى صدره، ويتمتم:

- أنت حزينة... حزينة جدّاً!

بقيت لبانة على صدر الغريب طوال اللّيل، تغفو حيناً، وتستفيق حيناً، فتعود لتتمسّك بما يحمله من أمان ودفء، كانت بأمسّ الحاجة إليهما، وذات صحوة همست:

- ما لنا؟!

فهمس هو الآخر، مطوّقاً إيّاها بكلتا ذراعيه، وقد لاحظت شامة مثل حبّة مسك، تعلو فمه:

- عشقناكِ.. عشقناكِ فحسب!

* * *

حزمت لبانة متاعاً قليلاً، جلّه كتبها، وبينها النسخة الوحيدة من مصحف فاطمة، الذي نسي المقتتلون أمره، وتذكّروا الدماء فحسب،

ورحلت مع عبد الرحمن الباجيّ الطبرقيّ إلى حيث تنتظره قافلته في ميناء صور.

لم تنظر وراءها، و لم تودّع أحداً، و لم يتمكّن إخوتها بمحاولاتهم غير الجادّة، من ثنيها عن تلك الزيجة. وحينما صارت الرقّة وراءها مثل طللٍ بالٍ، اعتصر قلبها وجع غريب، وهي تتنشّق ريح المكان للمرّة الأخيرة، وباغتتها صورة سليمان وقد عاد إلى الديار و لم يجدها، فارتاحت قليلاً لهذه الفكرة، ووجدت فيها انتقاماً لقلبها. أطلّت من هودجها، فرأت عبد الرحمن يسوقها، فبدّد مرآه قلقها، وقد ألفت نفسها جديدة وطليقة من كلّ وثاق أوثقها بهذا المكان وأهله.

-37-

تقبّلت لبانة قدرها في الغربة، مثلما تقبّلته في الفقد الكثير الذي ألمّ بها، فليس بين طبرق والرقّة أيّ سبب من أسباب الشبه. كلّ شيء مختلف هنا: الماء، والهواء، والحجر، والبشر. لكنّها اجتهدت لصناعة الألفة، وقد قرّرت أن تكون سعيدة، وبهذا القرار أدركت أنّها في قطعة من الجنّة، وطفقت تستبدل بالأصفر الذي تركته، هذا الأزرق الممتدّ حتّى عنان السماء. وكانت كلّما ثقلت على نفسها الغربة، تأنس بذكر خالقها، فتطمئنّ حينما تركن إلى فكرة مفادها أنّ الله تعالى هو الموجود الواحد الذي يكون معها أنّى حلّت أو ارتحلت، فهو في الرقّة، مثلما كان معها في بغداد، ومثلما هو معها هنا وراء البحر.

ولم يكن عبد الرحمن يدّخر أيّة نأمة تجعلها راضية أو سعيدة. انكبّت لبانة على النسخ، وراحت تتردّد على مجالس العلم في طبرق، والتي تذكيها زيارات القادمين من أهل الفِكَر من أصقاع جديدة عليها، ممّا يجعل لها طعماً آخر من الجدل في الأفكار والمعتقدات، لم تعهده من قبل، زادها غنى، وواساها. لقد باتت تحبّ هذا المكان، وتألف المختلف من حياة ساكنيه، وراحت أشياء تحلّ في ذاكرتها محلّ أشياء أرادت أن يطويها النسيان، ومع القديم الذي بعد عن عينيها راح يحلّ الجديد في قلبها.

وفي أحد الصباحات، استيقظت لبانة من نومها، وهمّت بأن تقوم من الفراش، وإذ بسجّادة تحت قدميها على جانب السرير، سجّادة صغيرة بنقشها العجميّ، وألوانها الحارّة. لا يمكن للبانة أن تنكر أيّاً من تفاصيل هذه القطعة تحت قدميها، لا غرزتها البيزنطيّة، ولا زهر الرمّان الذي يكلّل سجفها، ولا نقش العقرب الذي يحاكي وشم نهدها، والذي ابتدعه سليمان السلميّ بدعة يؤطّر بها بعض الكتابات على سجّاده، وأكثر من ذلك الكلام الذي لا يعرفه سوى اثنين على وجه البسيطة، هي وهو:

مـــن يفتـــدي قلـــب المُعنّـــى

في هـــوى الوجـــه الصـــبوحِ

سُـــمُّ العقـــارب لا يَـــريمُ

ليســـتبيحَ غـــلالَ روحـــي

لم يدرك عبد الرحمن الذي أراد أن يفاجئ لبانة بهديّة مشرقيّة، اشتراها من أحد التجّار القادمين في البحر ليسعدها، أنّه يجرّ عليهما ذكريات حاربت بجدّ لتنساها، فيصفو له منها القلب والروح. قال إنّه أراد أن تكون رائحة الوطن معها، فتدفّئها، وتشعرها بالأمان، وأنّه لو أحبّ أن يقول لها شعراً، لما وجد أكثر من هذين البيتين مناسبة لوشمها، ولحاله معها. هذه الحال التي رجت الله مذ عرفت عبد الرحمن، أن تخرج منها، وتمنّت أن يبدّل الله جلدها جلداً آخر، تستطيع معه أن تتخلّص من ذلك العقرب الذي يستلقي على نهدها، والذي وشمته فقط من أجل سليمان، سليمان الذي جعله نقشاً لسجّاده العجميّ، وتعويذة تلاحقها، وتصل إليها، حتّى وهي في أقاصي الدنيا.

لم تفكّر لبانة في حيرة عبد الرحمن ودهشته، حينما علـــم أنّهـــا، وبطريقة غريبة، قد لفّت السجّادة النفيسة، وأعطتها لأوّل سائل طرق باب الدار، ثمّ عادت للانغماس في الحياة الطبرقيّة، وكأنّها لم تكن يوماً إلاّ فيها ومنها.

* * *

شهلا العُجيلي

عمّان

2012/7/5

مكتبة
t.me/soramnqraa

سَجّاد عَجَميّ

كان سليمان يتحرّك بثقة وبلهفة، وكانت تراقبه بدهشة وامتنان. تذكّرت لبانة أنّ أحداً لم يصنع لها طعاماً منذ زمن طويل، منذ ماتت أمّها، ولم يهتمّ أحد بأن يغطّيها، حتّى زوجها الذي اعتاد على أن يعرّيها فحسب. لم ينتظرها أحد يوماً عند مغادرة أو أوبة، ولم يأخذ رجل أو امرأة رأسها بمثل هذا الحنان من قبل.

كانت جائعة جدّاً، وكان جسدها كلّه يؤلمها، وروحها كانت متعبة، ولم تكن تقوى على السير عكس الريح، فأكلت، وغسلت وجهها ويديها بماء من ليمون وورد، حضّره لها سليمان الذي جلس إلى جوارها، وأسند رأسها إلى صدره، وطفق يمرّر أصابعه على ظهرها جيئة وذهاباً، استسلمت لبانة لذلك الدفء كلّه، ونامت مثل جنين أرهبته الحياة، ففضّل العودة إلى رحم أمّه.

شَهلا العُجيلي

▪ كاتبة من سورية

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com